ويبقى عطرها..

الناشر

رئيس مجلس الإدارة

أسامة إبراهيم

المدير التنفيذي

سماح الجمال

تصميم الغلاف

حسين جبيل

التصميم الداخلي

محمد عبدالفتاح

دار النخبة

33 شارع السنترال - الحي الأول

مدينة الشيخ زايد - الجيزة - مصر

تليفون: 38511969 - 00202

002 - 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

الكتاب: وَيَبْقَى عِطْرُها

المؤلف: حورية عبيدة

عدد الصفحات: 168

الطبعة الأولى

1438 هـ - 2017 م

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: 21895 / 2017

ISBN: 978-977-838-031-6

وَيَبْقَى عِطْرُهَا

حورية عبيدة

أبوظبي/ الإمارات العربية

11-شعبان-1438 هجرياً

7-مايو- 2017 ميلادياً

النخبة
للطباعة والنشر والتوزيع

تَهيئةٌ

الواقعُ.. أرْوَعُ حكَّاءٍ وأمْهَرُ راوٍ

ويبّقى عِطْرُها

أتعبتها لواعِج الحياة، وأضْناها شقاء البحث عن السعادة، وأعْياها العثورُ على طمأنينة القلب، فتغشّتها سحابة مِن كآبة، وتاقَت رُوحها للانعِتاق من القَيد الجسدي والحيز الأرضـي، أغمضتْ عينيها؛ تراود خيالا رؤوما ووصالا حنونا؛ اشتاقتْ لروعة الحُب والشِّعر والرومانسية، وحين بللتها أمطار الوَجْد، ناوَشها هاتفٌ من بعيد؛ ذلك الذي خبأ قصائدَه في عمق عينيها، فأسَرّتْ له مُلبية: «هَأنذي؛ يا من وَسّد روحي فوق يديه».

أوْصدتْ باب غرفتها، أسْدَلتْ أمْواج شَعْرها الهادر؛ حَرّرَته من قَيده وصَفَدِه، تَبْغي خِفافاً من بعض أثقالها؛ وهمومها؛ تخلّتْ عن بعض ملابسها، ألقت نِعال قدميها بارتياحٍ بالغ، تهيأتْ لاستقبال قبائل الشَّجن الهارب مُذ أمَد، مدتْ ذراعيها أجْنحة مُشَرّعَة مُحلِقة في الهواء، بِعَينِ رُوحِها مَسّدتْ أحلامها التي فشلت في تحقيقها، رَبَتَتْ على قلبها، أرْخَتْ جفنيها قليلا تتسمع خفقاتها، دون خجل؛ قرَرَتْ أن تكشف عَن اختلاجات النفس المُتسَيّدة، وتُطيعَ أوامرها المُستبِّدة، وتَخضعَ لشطحاتها، وتَتلمسَ فوران وقشعريرة خِلجانها المتوثبة للانطلاق لمرافئ الأحلام.. للخلاص.. للجنون، فلترقص؛ ولتضحك؛ ولتصرخ،

ولتمارسْ بعضا من المُجون.. لايهم، المهم أن تَتقوّى على آلامها، وتكسرَ عُنفوان أحزانها، لتُعاودَ هَدهَدة رُوحِها المُتعَبة.

ترَنَّمَتْ: «يُسمِعُني حين يُراقِصُني كلماتٍ ليست كالكلمات»، يالها من كلماتِ روحٍ عاشق الحياة نزار قباني، استدعَتْ موسيقاها ومعها ماجدة الرومي وهي تتراقص بانتشاء كالفراشة، ولِمَ لا؟ فالموسيقى تفتح بابا من أبواب البهجة والزهو، على الأقل لن تكِيد لك، ولن تغدُر بك، والأهم لن تُنافقك أو تُهينك، بل تساعدك دون مقابل، انتَفَضَتْ ترقصُ كما كان يفعل زوربا اليوناني، حينما كان يفتح ذراعيه مُحتضنا العدَم وهو في عُنفوان خسارته، استمعتْ إليه يهتفُ: «عندما ترقص تُصبح سيداً للعالَم، صارخاً في نشوة: كُنْ مُكللا بكبريائك».

قَرَرَتْ ألا تَدَع نفسها مربوطة بإكسير الذاكِرة المؤلمة، وأن تطلقَ النار على رأس أحزانها، وأن تخْلقَ لنفسها ذاكرة جديدة، ولْتستدعْ أحلامها الجميلة، وخيالاتها، حتى تلك التي لم تتحقق بعد ووقر في روعها - يوما ما- أنها ستحققها طالما صدرها مازال يمتلِئ بهواء الحياة، فالأمل حتماً سيرافقها... بشهيةٍ بحثت عما تمنّتْه يوما: حبيبا؛ صديقا؛ كتابا؛ طعاما؛ نجاحا؛ ملبسا؛ مقطوعة موسيقية، كل ما تسلل بين جلدها وروحها عشقته وحلمت به؛ ولو مذ أمد، فما نشتهيه وحده لا يشيخ ولا يبلى أبدا، كالأساطير التي تعيش دوما صباها مهما مرت الحِقب.

تَذَكَرَتْ الرائعين الذين مَروا بحياتها، وبنظرةِ عَيْنٍ ناداهم قلبها؛ أَتَوا في أروع لحظاتِها؛ تلاقتْ الأيدي؛ تهامستْ؛ اعترفتْ بالحنين دون

خجل؛ عانقوا روحها -رغم أنها أخبرتهم أنها تودُّ أن تبقى وحدها- فلم يصدقوها؛ وتسللوا بين خلاياها... لحظتئذ فتحت صندوقها، ونَثَرَت عِطرَها الأثير ليضوع في حنايا الغرفة؛ استعارتْ تهويمة الصوفية، دارتْ حول نفسها فدار معها الكون ودودا مِطْواعا مُستأنِسا بها، أطلقتْ روحَها في الفضاء كفرشاةٍ تلوِّن الفراغَ؛ فاستحال لفراديسَ غَنّاء، تتواثَبُها أحلامٌ وذكرياتٌ دفينةٍ؛ دفيئةٍ؛ تَوّاقة للقيا، وألقت على بعض حزنٍ وأسى -يرفضان الرحيل- غِلالةً من ضبابٍ شَفيف.

تَماوَجَت أنفاسها العَطِرة شهيقاً وزفيراً، صرختْ بصوتٍ عالٍ؛ غنّتْ بطبقة صوتية أعلى؛ بكامل عُنفوانها أجهشتْ بالبكاء حَّد الارتياح والاكتفاء... لحظتها بَصُرَتْ وَمْضَ شُعاعٍ جَسورٍ مُقتحِم مُقبِلٍ يُناوشُها من قريب، تتسَمّع خُطواته الفَرِحة الجَزْلى، مُتَهلِلة؛ مُسْتبْشِرة؛ مُتضرِّعة؛ آتيةً تُهديها سعادةً إنسانية مُستَحقَة... حانَتْ منها التفاتةٌ مقصودة لمِرْآتها؛ أشرقتْ رُوحُها مُرَصّعَةً بقطْرات الندى، فارَقَتْها سَحابة الكآبة؛ تلك التي تَغَشَتْها منذ قليل، عادت للوجه نضارته... جددت عِشقَها للحياة؛ لذاتِها؛ لخساراتها؛ لملامحها؛ تهللت قسماتها من فرط السعادة، نزعتْ ستائر الغرفة المُسدَلة، فتحت مغاليق الشُرفات لأحلامها الوردية، تتسمع نداء ليلٍ باردٍ حانٍ يكسوه ماء الشتاء، ينثر شذراته على صحراء قلبها، تركَتْ ذُروف المطر تنثالُ فوق عينيها؛ فوحدها قطراته تغسلنا وتطهرنا من أدْرانِنا... ظلَّلتها ابتسامةٌ رَؤوم، لم

تنسْ أن تكتبَ في دفاتر المطر أسماء من انتزعتهم من حياتها وذكرياتها الحزينة كي تَسّاقط معها نحو الأسفل؛ تحت قدميها الحافيتين.

آبَ بريقُ العينين يتبختر رِقراقا نشوانا، تذكَرتْ كل الأحبة، تأنّقتْ بنِثار الذكريات العذبة، أرسلتْ نسيمَ الوجد يستدعيهم؛ فلغدر المسافات صهيل، تهيأتْ روحُها لتكون بحضرتهم بكامل بهائها وأَلَقِها... كتبت بماء الياسمين اعترافا: «خِنجر الشَوق لن يخرج من الخاصِرة أبدا».. لم تعدْ تذْكرُ قسوة غيابهم، طفِقت تُرَتِلُ سِرَها «مهما سحق التنائي ورودي فسيبقى عِطْرُها»... شَرَعَتْ تُلَملِم خصلات شَعرها الهاربة، أخذتْ تُعيد ترتيب غرفتها؛ الآن رويدا رويدا تعود لواقِعها وهي أكثر قُدرة على مُواصلة الحياة وتَقَبُّلِ أقدارِها.

مِن نَظَرَةِ عَيْن

مِنْ نَظرة عَين ارتَعَدَت دِفئاً، واشتعل النبضُ خَفقاً وفرحاً، نَبأَها قلبها وسُطُوُّ عينيه المُستبِد بروعة الحب الأول، احمرَّ وجهها خجلا، وتمايلت الروح طرباً ومرحاً، تتوق لرواء ماء العِشق، تهمس شفتاها أغنية طالما احبَّت سماعها: «مِن نظرة عين قلبي ناداني، حَبيت وبقيت مخلوق تاني»، سَرَت في عروقها روعة الانتماء للحبيب، فظَلَّلَ السحاب الحَنون أحلامها، وطَرَّزت السماءُ خَيالاتها الوردية.. وكيف لا تَطْرب جوانحها؛ وهي الزهرة في نَضْرة الصِبا؛ والحب ينمو بعُنفوانه ويلفها بِطُيوف جَماله، نبتت بذور البهجة ليضُوع شذاها نحو ذلك البَهيّ القادم بِحُنوٍ؛ ليروي أحلامها الشهية بضوئه الفِضيّ.

اقتربَ منها مُتسلحاً بكلمة حانية؛ ونظرةٍ دافئة؛ يتوقُ ليبدأ معها حكاية العمْر كله، ارتبكت وأسلمت نفسها لسهر الليالي؛ تُمَنّي نفسها بعبير الأيام وضحكاتها الندية، عزمتْ على أن تُصنع حياتهما معاً شيئاً مختلفاً، ستسْبح في فَلَك تطلعاته وآماله، وتعشق اهتماماته، وتُدخِل السرور على قلبه؛ وتُذيقه شهْد أيامها، تفرَح لفرحه؛ وتحزن لحزنه، وتراود أفكارها لتتواءم مع أفكاره، سيُصْبِحان ويُمْسِيان يُسَبِّحان

بكلمات الحب ونظراته، عَشِقت المصطلحات العلمية لأجله، فهاهي اليوم تُدرك معنى كيمياء الحب وفيزيائه وفسيولوجيته تلك التي ربطت بينهما برباطها الحريري الشَفِيف.

تقاليد المجتمع والأسرة المحافِظة كَلّلَتْها بالخجل؛ فلم تجرؤ أن تسأل وتفهم عما يجب أن تعرفه الفتاة من أسرار الحياة الزوجية، فحملتْ أحلامها؛ ولم تُدرك أن الزوج يحمل سِرّه الخَبيء؛ وبدَوْرِه لم تسمح له قيود المجتمع البليدة أن يعرض نفسه على الطبيب؛ واستمعَ لمن نصحه بأن الزواج هو الحل... من أول ليلةٍ كان الفشل ثالثهما؛ تجرَّع كل منهما حسْرته؛ ودفن السر وأَخْفى، تمر الأيام والشهور والعيون تتساءل عن علامات الحمل الميمون والمنتظر؛ فلم تُحْر العروس اليئوس جواباً، وولتْ وجهها شَطْر زوجها علَّه يعْرض نفسه على الطبيب، فإذ به يتهمها في أنوثتها، ويرفض أن تحدثه في الموضوع ثانيةً؛ إذ كيف يبوحُ بسره الدفين مذ سنوات طِوال؛ ويعطي الفرصة لمن سيلوك سيرته ورجولته، وظل يسوقُ لها المبررات وانشغاله الدائم بعمله؛ رضِيّتْ المسكينة وصدَّقت؛ وطَفِقَتْ سنوات عُمرها تركض ركضاً، وطِباعُ الزوج تزداد حِدَّة وشراسةً؛ فأصبح يتعدى عليها بالقول والضرب؛ ويجبرها على أن تسترَ جسدها في بيتها؛ وينهاها عن أن تتزين؛ محاولاً قتل أنوثتها، مُلقياً في روعها أن التفكير في مثل هذه الأمور نوعٌ من « قِلة الحياء وسوء الأدب».

اعتادتْ أن تدفن سِرَّها ليلاً؛ وفي الصباح يفوحُ عِطر كبريائها، وتتكدَّس لَوعة الكلمات في صدرها لتموت صمتاً وخجلاً، فجأة تَفيء الأمُّ لآلام ابنتها ووهجها الذي تسَاقط؛ فتطلب الطلاق مُتنازلة عن كافة حقوقها الشرعية؛ وهي تُحدث نفسها أنها لم تطلب الطلاق لعدم قدرته على الوفاء بحقها الشرعي أو عدم قدرته على الإنجاب؛ بل لسوء طباعه وأخلاقه، ولو كان قد أحسن إليها لَما تركته لتحمل لقب مطلقة. ورغم أن الطلاق قد أحله الله؛ إلا أن مجتمعاتنا وتقاليدها البالية جعلته تهمةً وعاراً يُكلل المرأة؛ فيحمِّلونها أسبابه ووِزْرَه وتبعاته؛ وتظل التهم الباطلة تلاحقها أينما غدت أو راحت، بينما الرجل دائماً بريء براءة الذئب من دم ابن يعقوب.

تعود الأسِيرة لبيت أهلها؛ وبنظرةِ عَين يشدّون وثاق الرقابة وقيودَ الحُرِّية حول رُوحها؛ فلا خروج ولا زيارات للأصدقاء ولا رحلات ولاشيء؛ فقط: «لأنك مُطلَّقة؛ وماذا سيقول عنك الناس حين يرونك تخرجين وتُبصرين نورَ ربك»! سنوات أخرى تدور في فلكها؛ حتى يَمِنّ الله عليها بمنْ ينشُد قُربها ويطلب يدها؛ فتسترد المسكينة ابتسامتها؛ ها قد مدَّ القدَر يده الحانية ليمسح ذُروف عينيها؛ فتتزوجه؛ ويهديها ربها نعمة الحَمل؛ ويقرّ عينيها بفلذات الكبد؛ لكنها لم تكن تدرك المؤامرات التي تُحاك خلف ظهرها من أهل زوجها الذين لم ولن يقبلوا أن يتزوج ابنهم من مطلقة! وتم لهم ما أرادوا؛ وأجبروه على طلاقها، فعادت البائسة لبيت أبيها ثانية تجر خياباتها وأولادها ولقب المطلقة الذي حملته للمرة الثانية.

الأصفاد والغلائل القديمة ذاتها تُعاوِد شل تحركاتها؛ ومع ذلك قبعتْ في رَحْل عائلتها؛ تُربي أبناءها راضيةً مَرضيةً بأقدارِها.. وتتعاقب السنون؛ ويكبر الأبناء ويسافرون للخارج؛ فتُبصر نفسها وقد تخطت الخمسين من العمر والفراغ يقتلها، وأفراد عائلتها كلٌ مشغول بمسئولياته؛ لا يُعِيرونها التفاته؛ فتقرر أنْ تنزل لساحة العمل؛ كي لا تموت كمداً وحسرةً، علَّها تجد لروحها مُتنفساً وصُحبة طيبة، فتتفاجأ بنظرة عَين زملائها للمطلقات؛ بل ويتذكرها الآن أفراد عائلتها المشغولون عنها دوماً؛ يتذكرونها ليلقوا عليها قائمة من القيود تمنعها من الخروج وممارسة حقها في الحياة؛ وكأنه لا يجب عليها إلا أن تقبع في بيتها حتى يأتيها طائر المَوت بجناحيه!

مع نفسِها تجلس المَهيضَة؛ تنظرُ بعَين رُوحها لحالها؛ تفتح راحتيها فتجد عُمْرها قَبْض رِيح؛ ذهبَ الأبناء؛ وذهب الزوج؛ وذهبت العائلة؛ وبقيت السلاسل والأغلال، وحياتها الموؤدة قد أصبحت سطوراً سَطَّرَها القهر والجهل بيد مجتمع يمارس الظلم على المستضعفين ويحَمِّلَهم أفكاره الظلامية؛ ولا يهم أن تتحطم أحلام كل من تحمل لقب مطلقة أو تنكسر روحها، المهم أن تظل مُحاصَرة ومُكَبّلة بالحِكم والمواعظ والكلمات المأثورة؛ لتظل حياتها دوماً مأسورة بنظرة لا يرتضيها ديننا الحنيف... فلتتجمد المِسكينة بصَقيع الوِحْدة؛ ولتلْفَحها حرارة الخَيّبات والصدمات؛ ولتُهَدهِد أنينها الصاخب الصامت... فقد أتاها الخريف مُبكراً... فقط يحِق لها أنْ تعزِف لحْنَ فَنائِها.

أوتارُ العاشِق

يُرخى الليل أستاره؛ ليل العاشقين للصَّمت؛ يحملُ فنجان قهوته، يصطحبُ رواية بدأها مذ أيام عازماً أن ينهيها في ليلته هذه؛ يمدُّ يده لمكتبته الموسيقية؛ يختارُ مقطوعة هادئة تناسب جو الرواية الرومانسية التي يحتضنها بكلتا يديه، لم تفلح مُجاهدة نفسه أن تبتعد عيناه عنها، تلك القابعة في ركنها الخاص تعتلي مجموعته الفريدة والمفضلة من اسطواناته الغنائية؛ لم يكفها أن تعترشَ قلبه وتسكن روحه، فعل كما يفعل كل يوم؛ حين تسلبه إرادته كما سلبتْ لُبه، فلا يجد مفراً من اختيار إحدى اسطواناتها، يضعها على جهازه الأنيق العتيق «الجرامفون»، وبرفقٍ تام يضع الإبرة المعدنية؛ فتدورُ الاسطوانة؛ وتدور هي معه يراقصها ويُخاصرها بذراعيه كل يوم دون أن تدري!

ينساب صوت أنغام البيانو يعبقُ المكان كنهرٍ من العُذوبة؛ يشق طريقه إلى نِياط قلبه، لابد أنه سِحرٌ حِيكَ من قماشٍ ناصِع البَهاء؛ مَزْجٌ شَفيفٌ مُعَبق بشجن ألمٍ مُلتذٍ يتضَور شوقاً لوجه الحبيب في وَصْلِه وَصَدِّه -هكذا تحدثه نفسه- حال سماعه لعزفها يمتطي خيول الانشراح، يهفو لمرافئ سكينة تُظَلِلها سحابةٌ جليلة؛ ثَرِية؛ نَدِية؛ مُفعمة بالطراوة

وانسكاب طيوف الأحلام، أحلامٌ تراوده كل يوم ساعة تأتي لتملأ حياته بهجةً وجَمالا، يُفرغُ حقائب متاعبه ويُعيد حشوها بنظرات عينيها؛ وسِحر همسها؛ وشذا عطرها الذي يضوع منها كل يوم؛ والذي يعشقهُ ويعرفه تماماً؛ حين سالها ذات مرة عن اسمه؛ انطلق من فَوره واشترى قنينة، ليشُم عبيرَه كل يوم؛ فحين نعشقُ يصيرُ عطرُ الحبيب أروع العطور.

كل صباح يقررُ أن يبوح بعشقه الذي أدخله ديرَ صمته مُذ أحبها؛ لم يجرؤ على أن يُسرَّ لها بمكنون قلبه، كل يوم يُراجع نفسه؛ يبتعد عنها كلما رآها؛ يمشي وتمشي معه أسئلته؛ تُراها تصدِّقه؟ هل ستقدرُ عاطفته؟ كيف يُخبرها وهو مازال طالبا بالجامعة وأمامه سنوات قبل أن يتمكن من تأثيث عُشٍ يجمعهما؟ إلى أي مدى تستطيع أن تحتملَ انتظاره؟ يعلم أنها رفضت الكثيرين من الزملاء والأساتذة بالمعهد؛ فهل توافق عليه هو تحديدا؟ يتملَّكه التَّعب والإعياء؛ فيحاول الهرب من الأسئلة، لكنه مايلبث أن يسافر لها ثانية؛ ويُعاود اجترارها!

أربع سنواتٍ جمعتهما الدراسة معا في معهد الموسيقى العربية؛ لم يحدثُها غير مرة واحدة؛ طالباً منها دفترها، رغم أنه يعلمُ تمام العِلم أنه لم يكن بحاجة إليه، فقط أراد أن يتكلم معها قليلاً، أعطته إياه ووجهها يشي بابتسامتها الرائقة -كم يعشقُها- مؤكدةً له أنها نادراً ما تكتبُ شيئاً، فهي عاشقة للموسيقى؛ تهبُ لها حواساً وأُذناً صاغية؛ فتحفظ اللحن عن ظهر قلبٍ فور سماعِه، يعلمُ ذلك عنها، لكنه يبتسم راضياً

وهي تنفحهُ ابتسامة خَجلَى؛ يضمُ دفترها لصدره، يَنتحي رُكناً بقاعة المحاضرة؛ يفتحه برفقٍ بالغ؛ تقع عيناه على خطها الجميل وحروفه الرشيقة؛ فتسَّارع دقاتُ قلبه، ليبدأ عزيف حياة مشاعره السِّرية، والتي علقها على شجر الترقب والانتظار طيلة هذه المدة.

يستهلكه الصمت والصبر والعشق كل ليلة، تمر سنوات الدراسة مُكتفيا بنظراتٍ ملؤها الشَّجن والشوق والتَوق؛ دون أن تعي هي من أمره شيئاً، ذاتَ شوقٍ يقرر أن يفاتحها فما هي إلا أيام وتنتهي الدراسة، ولا يعلمُ أين سيلتقيها ثانية، وكيف وهو لا يعرف شيئا عنها؛ لاعنوان بيت أهلها ولا رقم هاتفها؛ كيف فاته طوال السنوات تلك أن يتحصَّل عليهما أويسألها أو يستفسر مِن صديقة لها؟! لم يكن يعنيه إلا الحرص على إخفاء مشاعره، لا يعرفُ لِمَ نستحي من إظهار الحب؛ ولا نستحي من التعبير عن الكراهية؛ بل ونجيد التعبير عنها بمهارة فائقة؟! تُثقلُ الأسئلة كاهلَه؛ تلك التي لا يطالُها أجوبة، بعزمٍ ينوي تدارك خطأه؛ فالألم الذي يعتملُ بجوانحه يجبرُه أخيرا على أن يعيد التفكير في الأمر وأن تطاوعه نفْسه.

ينظر في المرآة؛ يتأكد من كامل أناقته التي يحرصُ عليها دوما، ينمّقُ ربطة عُنقه، يضع قليلا من عطره المفضل، ينشرح قلبه؛ فاليوم يفكُ أزرار صمت سنين أوهمته أن الوقت المناسب لم يات بعد، تساءل عن ذلك العبقري الذي حدد وقتا معينا للعشق او للبوح به؟! من منا يستطيع أن يضع لنفسه موعدا بذاته كي يجتاحه الحب ويشعل

فَتيله؟ كلها أوهام، فالعشق كالعصافير معلقة على أغصان الأشجار؛ لا ندري متى يحط على أكتافنا، لكنه ما إن يتنزَّل علينا حتى يتحتم أن نُبلِغه مأمَنه؛ للقلوب التي أحببناها من فَورنا، فلِمَ نحرم أنفسنا قِطافه؛ ونختار التعاسة ومُكابدة الأحزان بأيدينا؟ هل خُلقنا لنكتم مشاعرنا؟ وكيف ذلك والصمت كثيرا مايُعرِّينا ويفضحنا؟! إذن فلنصرح ونبوح؛ ونوفِّرُ على أنفسنا سنواتٍ نهدرها في الخوف والقلق.

يفكُ قَيدَ نفسِه من أسر أوهامه وأسئلته، يسحب «كَمانَه» بعلبته الأنيقة، فاليوم سيعزفُ لها لحنا وضعه خصيصا لها، ويعترف لها بحبه، ثم... يصمت قليلا ثم ماذا؟ وهل بعد البوح شيء؟ الحب هو كل شيء، بروحٍ فرحانة جَزلى، يمشي بخطوات واثقة صوب معهد الموسيقى القريب من منزله؛ يعتلي عَرش أحلامَه، يدندن لحنه، يستمع لعزف المسافة المتبقية حتى يصل للباب الرئيسي، الآن يلتقيها ليقيمَ حفلا لنبض قلبه لحظة يُسرُّ لها بمكنونه، سيقاوم نظراته الخَجلَى، ويفصح عن الحرائق المشتعلة في جوانحه، حتماً ستَدثرُ بارتباك جميل ذلك الذي يعتري الفتاة حين تستمع لهمس الحبيب، اليوم لم يعد الهمس يكفيه؛ سيفصح عن قصائد مُخباة في عمق عينيه؛ سيُعمِّدها بنهور عشقٍ تنسال بعد دقائق في جنبات القاعة التي تجمعهما كل صباح.

على بُعد بضعة أنفاسٍ يقعد جوارها، يقترح عليه جُنونه أن يمسكَ يدها تحت الطاولة دون أن يراهما أحد، لم يعد هناك جدوى من التعقل

والصمت؛ فما أحلاه الجنون في العشق، لابد من هدم جسور الخوف والارتباك، يمدُّ يده، يحتضنُ أناملها، ينظر في عينيها قابضاً على كفَّيها، تلهجُ نظراته برائحةِ العشق؛ بشراسةِ الشوق، بشبقِ الانتظار، تسقطُ قلاعها خَجَلى؛ يهمسُ لها: أحبُكِ؛ أُعيش مُحاصرا بك... ترتبكُ، تتوردُ وجنتاها، تسَّارع أنفاسها، ترعدُ روحها دفئاً، تسّاقط الفرحة من عينيها، تصرخُ فيه دون أن يسمعها: تأخرتَ طويلا، لم يتبقَ إلا أيام وتنتهي الدراسة، كيف طاوعك قلبك أن تحرمنا مِنْ أجمل اللحظات؟ تصمتُ روحها، يعتريها الخجل، ترخي ناظريها وتثبّتهما على يديه، يبتسمان؛ تنهضُ نشوانة، تتجه للبيانو؛ تضبط إيقاعه؛ تفتح النوتة الموسيقية على صفحة حددتها مِن قبل؛ تعزفُ مقطوعة «الفَرح» التي خبأتها له، يدوزنُ أوتار الكمان؛ يعزِفان معاً نفس اللحن.

الأنيق

حمدْتُ ربي أن رأيته بعد طول انتظارٍ واشتياقٍ؛ سُررْتُ به؛ وفُتنتْ بأناقته ووداعته؛ واطمأن قلبي عليه . . ثلاثة أيام أبادلُه نظرات الإعجاب، وهو يزهو برونقه البديع، أتلفَّتُ حولي، وددتُ ألَّو استأثرتُ بجَماله وحدي؛ فأبدله وُدِّي، رغم غروره يزدادُ إعجابي به وخوفي عليه؛ فمَنْ غيره يحقُّ له أنْ يتيه بنفسه ؟ ! ثلاثة أيامٍ فقط وانتهى عُمرُه ! أفلَ نَجمُه؛ وانطفأ زهوه، طفِقَ يحتضرُ ويعودُ حُطاما؛ امتلأ قلبي حَسرةً عليه . . فقد أُعيد تكسير الرصيف وحفرِه ثانيةً؛ لتركيب وصْلات كهربائية !

سَنة أُولَى حُب

حين احتواني فِراشي؛ حاولتُ حتى يئِس الليل من منامي، دون أن يحسَّ بي وبقلقي الذي يمورُ بصدري؛ نهضتُ أرتبُ أشياءه، أُشْرِفُ على صغيرها وكبيرها؛ توقعا لما يحتاج في سَفرته؛ دونما كلمة وبغير أن أرنو إليه، بعدها وسّدت رأسي بين يدي أتصبَّبُ دمعاً، تضاربتْ مشاعري بين فَرحٍ بيومٍ عشقتُ انتظاره؛ وحزنٍ وغربة فراقنا لأول مرة، راودتني نَفسي أثنيه عن قراره؛ أستبقيه جواري؛ ولكن فجأة داهمني طوفان ذكريات مُبعثرة تلح عليّ أن أرتبها علّها تلملم شَتات نَفسي.

فمذ سنوات عِدة؛ كنت طالبة مُجدّة، حصدتُ المركز الثاني على المحافظة في الثانوية العامة، وبدأتُ في ترسيم خطوط حلمي لأُصبح صحفية، وصَدَق مكتب التنسيق وعْدَه، وزفّ إليّ خبر قبولي بكلية الإعلام جامعة القاهرة، رغم توقعي إلا أني فرحتُ أيما فرح، أتاني صحفيو الجمهورية والمساء يسألونّي؛ أشرتُ إليهم قائلة: «أن أصير مثلكم»، وأنا عَجِلةٌ مِن أمري؛ بدأتُ في ترتيب شئون سفري لتقديم أوراقي، بصرتُ عينيّ أبي الدامعتين وقرأت توسلاً حنوناً يراجعني لأختار كلية أخرى في مدينتي، كيلا أبتعد عنه؛ وهو الأب المكلوم

توا في ابنه الشاب؛ الذي ما إن غرقَ في الأسكندرية حتى اشتعل رأس والدي شَيباً من الحُزن؛ صرتُ بعده أنا أكبر الأبناء، ولأني كنتُ الأقرب لقلب والدي؛ عزفتُ لحناً أُجيدُه تماما؛ أستدرُّ عطفه وحنانه؛ فحايلته ودللته حتى أقنعته، ضعُفَ الأب المحزون الحنون، ووافق واثقا بقدرتي على تحمل مسئوليتي في غربتي وحدي.

القاهرة كانت رحلات مدرسية مُبهجة، أو زيارات للأقارب، أما الأن وفي طريقي للإقامة فيها، فقد قرأتها بطريقة تختلف عمن يعيشها ويألفها ولم تعد تُدهشه، وجدتها تعجُّ بالنقائض؛ فالعاصمة الطاعِنة الشابة قُبحها ينافس حُسنها، مؤرقة بضوضائها ألقة مشرقة بأضوائها، الفوضى قانونُها وزحامها سرُّ جاذبيتها، هواؤها خليط دُخَان وعرَق وأتربة؛ لكنه عَبقٌ بتاريخها وسِحر أنفاس الرائق نيلِها، يتقاطرُ الوافدون إليها من كل الأقاليم فيألفونها؛ يمنون أنفسهم بطِيب عيشها رغم قسوته، مُنفرة مُبهرة معا، تأسرك فلا تستطيع منها فكاكا وإن تمنيت في قرارة نفسك.. لم أدر إلا والقلم بيدي يكتب مشاهداتي في مقالين أرسلتهما للأستاذ صلاح منتصر الكاتب الصحفي بجريدة الأهرام في عموده الشهير «مُجرَّد رأي»، فنشرهما في أسبوعين تاليين، وكنت قد وقّعت باسمي مُذَيلا بـ «طالبة على وشك الالتحاق بكلية الإعلام».

في يومي الجامعي الأول لم أكن أعرف أحداً من الطلاب الجُدد، ساءلتني نفسي عمن يشاطرُ الغريبة حنينها لأهلها ومدينتها الهادئة الجميلة،

وقبل الغرق في بحر التفكير؛ دخل عميد الكلية ومعه جَمْعٌ حافل من الأساتذة والمعيدين من مختلف أقسامها (صحافة إذاعة علاقات عامة) يرحبون بـ «كِريمة تُورْتة الثانوية العامة»، كما أطلقوا علينا باعتبارنا طلاب إحدى كليات القمة، وفي ذهول سمعت الدكتور خليل صابات -رئيس قسم الصحافة وقتئذ- يناديني باسمي باحثا عني! أحسست بدهشة تهز قلبي، أعضائي ترجف بقوة، ساقاي تفقد القدرة على التمدد، تساندت على مقعدي الخشبي واقفةً مُلبيةً: «نعم أنا هُنا»، لكن صوتي هرب بعيدا، رفعتُ يداً ترْعُد تستفسر عما اقترفته من جُرم هكذا أول يوم؛ مما جعل مئات العيون تجوب المدرج رقم «واحد» ثم تحدق فيّ.

ما أروعها من مفاجأة؛ أستاذ الصحافة النابِه يخرجُ من جيبه مقاليّ اللذين نشرتهما، وبروعته احتفظ بهما منتظراً يومي هذا، ليرى تلك الحورية مُسدياً نصيحة مُغلفة بمديحٍ لم أسمع أعذب منه في حياتي قائلا: «المواهب الصحفية قد تظهر في عُمْر مبكر؛ وحين تثقلها الدراسة تبدع أكثر»، حياني مبتسماً بود، وإحساس ناعم مُلتَذ يكسوني، ضجَّت القاعة بالتصفيق، فكانت أجمل تَحايا العمر أتلقاها في يوم كان مشهودا، وبدأت رحلتي الجميلة طواعية في بلاط صاحبة الجلالة الفاتنة المُتعبة.

ماما؛ هل فرَغتِ؟ أُفقت فجأة على صوت أحمد -أكبر أبنائي- مذهولاً حين رآني ضاحكة باكية، نظرتُ إليه؛ تتقاذفني مطرقة الذكريات وسِندان الوقت الذي يفر سريعا، ابتسمت له، بحنوٍ رَبَتُّ

على كتفه، عانقته، عجِبتُ كيف أحرِمُ ابني من فرْحة أول يوم جامعي؛ والذي أعتبره بداية سنة أولى حُب؛ حين يحب نفْسه وأحلامه وتطلعاته وتحقيق مايعشقه؟! ولِمَ البكاء ولطالما حرَّضتُه أنا على السفر والاعتماد على ذاته؟! دعوتُ له، حملتُ أغراضه بنفسي حتى باب السيارة... وفي غفلةٍ منه ودون أن يلمحني؛ أودعتُ قلبي في حقائبه ليرتحلاً معاً؛ كي يؤوبا معاً.

زهور ربيعٍ منْسِية

أراقتْ المذيعة الأنيقة دمعتين؛ فاهتزت أوتار الشبكة العنكبوتية بكمٍ هائل من التعليقات والإعجاب برقتها، وتمنى الرجال لو ربَت كل منهم على قلبها الحاني، وتغامزتْ النساء عن نوع «الماكياج» الذي صمدَ ولم يتأثر؛ ونسِي الجميع موضوع البرنامج أمام دموع الجميلة! الحلْقة كانت عن أطفال الشوارع الذين ناءت كواهلهم الغضة بعبء سنين؛ قليلٌ عددُها ثقيلٌ همُّها وحزنها، وضربَ الضيف مثلا بطفلٍ جرى وراء رجل يتسول منه «حُضنا» لأن والده تُوفي مذ سنة، ومن بَعده لم يضمه أحدٌ لصدره! فقط كان مطلب ذلك البرىء التعِس مُجرد ضَمَّة، بعدها مشى وترك الرجل غارقا في البكاء ولسان حاله يقول: «أنا الذي أحتاج لحضنك يا بني».

تعتدل المذيعة في جلستها؛ تطلب منه أن يُدلي بخبرته، يمسحُ الضيف دموعه قائلا: «ذات صباح قررتُ النزول لأطفال الشوارع؛ زهورالربيع المَنسية المُلقاة تحت الكباري وبين الشقوق والجحور، أجوبُ الخرابات وداخل مكبات النفايات؛ أراهم يقتاتون فضلات أطعمة تأباها الحيوانات والقوارض، وجوههم هزيلة، عيونهم مطفأة

يصرخ فيها صمت الكلام، أيديهم مرتعشة وقلوبهم وجلة ظمأى لمن يحنو عليها، ضاقت عليهم الدنيا بما رحبت فتجلَّلت الأرض بأقدامهم العارية، منهم ولد تمنى أن يكون طبيبا أو مُعلِّما، وبنتٌ حلمتْ بحُبٍ عذري؛ أصبحتْ حُبلى سِفاحاً، وامتلأ رحمها بجنينٍ قادم لن يرحمها؛ لأنه لا يفقه سِرَّ قدومه، ولا يعلم كيف أنها أصبحتْ أُمه مُكرهة.

تتأثر مقدمة البرنامج؛ تسحب منديلا كإجراء احتياطي قبل أن تعود أدمعها لتنهمر ثانية، تسأل ضيفها بصوت مُتهدجٍ عن الأسباب التي يعتقد أنها وراء ماساة هؤلاء الأطفال، يُجيبها بحزنٍ وإصرار: هَم حصاد أربعين سنة من مآسٍ لا تُريد أن تبرحنا ولا أن نبرحها؛ مِن فقر، وبطالة، وأزمة سكن، وسوء رعاية صحية وتعليمية واجتماعية وأخلاقية، أَسَرٌ كاملة تقطن غرفة واحدة تُهدر فيها خصوصيات أفرادها كل ليلة، تفكك أسري، ويُتْم، وتجمعات عشوائية تلفظ هؤلاء الأبناء الواحد تلو الآخر إلى الشارع صاغرين؛ ليعيشوا بين رُعبين؛ رعب أُسَري ورعب الشارع بوحشيته، حيث يقعون فريسة للإدمان والاغتصاب، وعصابات التسول والبلطجة، وتجارة الأعضاء البشرية، في وقتٍ ينشغل فيه الوطن دائما وأبدا بكل شيء وأي شيء إلاهُم، وبالأمس يحتفل العالم باليوم العالمي للطفل؛ وأطفال شوارعنا تحتفي بهم أمراضهم الجسدية، وعُقدهم النفسية، وكُرهٌ وبُغضٌ وعدم انتماء لوطنٍ أهملهم ناسياً ومُتعمداً.

يأخذ الحماس الضيف ويُكمل: حين قامت ثـورة الخامس والعشرين من يناير؛ شاركوا بكل حماس في البلطجة والحرق

والتحطيم بإخلاص وتفان مُنقطع النظير، تُراهم كانوا يفقهون السياسة ويدركون معنى «الشعب يريد إسقاط النظام»، أم وجدوها فرصة ثأرٍ من مجتمع يحنو على كلابه ويتركهم فريسة للجوع والتشرد؟ رفعنا لافتات، وقامت مسيرات تندد بالتحرش الجنسي للفتيات، وقام رئيس الدولة بزيارة إحداهن بالمستشفى، ولم يلتفتْ أحدٌ لنحو مليوني طفل شارع يتم الاعتداء عليهم جنسيا وجسديا عَيانا بيانا، فالكيل بمكيالين ديدننا وصراطنا الذي نأبى أنْ نحيدَ عنه.

فجأة يعلو صوت المخرج باستوديو التصوير صارخا: ستوووووووب، تفزعُ المذيعة، تنتفضُ من مكانها، يندهش الضيف متسائلاً عن سبب تلك الصرخة المُدوِية، يقترب المخرج على عَجل وقد تغضَّنت قسمات وجهه بعلامات غضب وذعر، تتقاذف عبارات السَّب واللعن من فَمِه للضيف والمذيعة في آن -دون أنْ يسمعاه- يُحذرهما مِن الكلام في السياسة، أو المَساس بشخص رئيس الجمهورية، أو الإتيان بذكر ثورة الخامس والعشرين من يناير؛ مُرْدِفا: «عاوزين ناكل عيش يا جماعة ونربي أولادنا»، يلتفت للعاملين في الاستوديو مُنبها إياهم تنفيذ تعليماته ومَسْح الجزء الأخير من كلام الضيف.

يكظمُ الضيف غيظه ودهشته؛ فتبتسمُ له المذيعة تُحمِّسه على مواصلة حديثه؛ شرط أن يعرج على نقطة بعيدة عن السياسة، والأفضل أن يقصَّ نماذج وحلولاً أبدعتها دول أخرى كي نتعلم منها، يتململُ

الضيف في جِلسته؛ يصمت برهة حتى يسترد هدوء نفسه ورباط جأشه ويُكمِل: «رفعتْ البرازيل والهند شعار: الأطفال لا يريدون مؤسسة خيرية يريدون المستقبل، وعلى مدى خمس سنوات تعاونت وزاراتها المختصة بالصحة والإسكان والشئون الاجتماعية ومُمثلي المجتمع المدني، ووفـرتْ مساكن مناسبة لأُسرهم، ومشروعات صغيرة يتكسبون منها، ونظاما تعليميا وصحيا مُلائماً، وأنشطة ترفيهية، ومأواً ليليا، وطعاما، ومراكز تأهيلية لمن لا أُسر لهم، ومراكز للعلاج من الإدمان، أمَّا إسْلامنا الحنيف فقد صَنَّفهم ضمن الفقراء وابن السبيل؛ وهما من مصارف الزكاة، وعلى مدار عهوده كانت الأوقاف تُخصص لإعالتهم، بل وتزويجهم اتساقا مع قول المصطفى صلى الله عليه وسلم: «ليس مِنَّا من لم يرحم صغيرنا».

«جميل يا أستاذ».. يعلو صوت المخرج ثانيا؛ لكنه هذه المرة مبتهجاً، يُهنيء قُدرة ضيفه على استيعاب التعليمات، والامتثال للتحذيرات، ويَحثه ضاحكا: «أكْمِل أكْمِل يا أستاذ»، يُواصل حديثه: لا أحبُ أن أقف في خانة البكائين على اللبن المسكوب، بل أدعو للرقي والسمو بالوطن، وتفعيل حملات التبرع الخيرية، وانشاء مكاتب للاستشارات الأسرية ومراكز للتأهيل النفسي والاجتماعي لهؤلاء البائسين، وأن يضطلع الإعلام بدوره في توعية الرأي العام بالتعاطف معهم وإدماجهم في مجتمع يستحق أن يحلموا فيه بمستقبل لهم وله،

فهم يستحقون الرعاية والاهتمام؛ كيلا يتطاول ليلهم، وحتى يتشقق فجْرُهم ليصدحوا: «صفَحْنا عنك أيها الحزن، وإلا فنحن مَن يستحق الإدانة.. ستووووووووب جرى إيه يا باشا، يستشيطُ المخرج غضباً، يدق بيده بعنف على طاولة بجواره فيسقط كوب الشاي على الأرض وتتفتت حبات الزجاج الكريستالية، يُشير للمذيعة صارخا: «إيه ده يا أستاذة؟ هو ده الضيف اللي حضرتك جايباه لنا علشان يودينا في ستين داهية؟! وطن إيه اللي أطفال الشوارع هايصفحوا عنه؟! مش قلنا مفيش كلام في السياسة؟ عاوزين نروح بيوتنا ياناس، حرام عليكو، امسحوا الجزء الأخير من كلام الباشا» يُكمل صارخاً.

يتملك القرف والاشمئزاز من الضيف، يرفض مواصلة الحلْقة، ينزعُ مُكبر الصوت مِن طيات ملابسه ويلقي به، ويقرر مغادرة الاستوديو، تقف المذيعة في ارتباك بَيّنٍ؛ تحاول أن تثنيه عن قراره ليكمل الدقائق المتبقية من زمن البرنامج، يرفض الضيف ويدلفُ من باب الخروج مُسرِعاً، تحملقُ في وجه المخرج، يتنهد باطمئنان بالغ، يبتسم لها في هدوءٍ وارتياح، يشير بيده كي تعود مكانها لتُنهي الحلقة، شرط أن ترسم على وجهها ابتسامة رائقة، يطمئنها أن الدقائق المتبقية من البرنامج سيملأها بجزء من احتفال أندية «روتاري القاهرة» بعيد الطفولة؛ وهم يغنون: « فيها حاجة حلوة».

❀❀❀

عيناها

بلهفةٍ عانقها – بعد فراقٍ – هامِساً : لا أودُّ منكِ شفاءً ، صمتتْ كي لا تتشظى بوحاً مُشتَهى ؛ فالصمتُ ثورة الذكريات والحَكايا ، وحين عاتبْتهُ عيناها الحزينتان ؛ أهداها طاقةً من البنفسج ، نظر في عينيها مُتمْتماً مُداعِباً : الحزن يليقُ بالجميلات ؛ كلما هممتُ بمغادرتكِ تعثرتُ بكِ ؛ كيف يمكنني فك الاشتباك مع عينيكِ ؟ ألقت بخجلها قائلة : وكيف يفلتكَ قلبٌ ضبطتَ إيقاعَه ؛ وألغيتَ تاريخ مَنْ قبلكَ ؛ واثقاً ألا أحَد بَعدكَ ؟ !

حَدُّوتة قبل العِيد

اليوم يا ولدي لن أحكيكَ حدوتة قبل النوم؛ فالنوم رحلَ، وتهدمتْ الغرفة، وتحطمتْ الأسرَّة، وربما بعد دقائق أو لحظات ينهار بقية الدار والجدار، فلتلقِ نظرة وداع لتحفظه ذاكرتك الصغيرة الكبيرة؛ كما حفظَتْ آلاف الذكريات الحزينة وقليل منها بهيجة، لا تدع الحزن يسكن عينيكَ؛ فغدا تشرق شمس جديدة، وعلى أرضنا ما يستحق الحياة.

حين تذهب لمدرستك صباحا؛ لا تتألم إن وجدتها قد انهارتْ وضاع مقعدك وتحطَّم لوح مُعلمِك، لا تبك يا ولدي وعد، وساحاول أن أعلِّمكَ قدر استطاعتي، وفي طريقك ارفعْ رأسك، واحمل حقيبتك على ظهرك، واحرص على بقايا دفاترك وقلمك المكسور فهي آخر ما بقِي لك، واحذرْ عدوكَ الصهيوني الملعون؛ لكن لا تهرب، إن أوقفكَ مستترا بسلاحه البغيض لا تخفْ، دعه يجردك من ملابسك، ويفتش حقيبتك بحثاً عن سلاحك الحجري البدائي، حين لا يجد شيئا؛ انظرْ في عينيه بتحدٍ، صوب نظراتك الكارهة فلن يستطيع أن يقتلعها من ذاكرته، ولن يهدأ باله أبداً.

في طريق عودتك يا بني؛ تجنَّب المرورعلى حي «الشّجاعية»، فالطرقات ملأى بجثامين الشهداء، لم تعدْ سيارة الإسعاف قادرة

على حملهم، فالمصابون والجرحى يفترشون أرض المَشفى الوحيد؛ أُذَكِّركِ ياولدي مذ سنوات قليلة لم تكن تفقه معنى الموت حين استشهد والدك، وظللت بجواره تداعبه وتلعب بأصابعك في دمه، ولعلك لعقتها؛ الآن صرتَ صبياً، وأدركتَ معنى جلال الموت، وتأكدتُ من نضج عقلك؛ يوم وجدتك تحفظ القاموس الذي وضعت كلماته من أجلنا نحن فقط، حروفه كلها تعني الهدم والتشرد والتهجير والتفجير والحرمان وتكسير العظام والاحتلال والإرهاب والجوع والأسر والسجون واللجوء والاغتصاب والمخيمات وترك الأوطان والعودة والكرامة والقضية والأرض والعرض.

وكي تختصر الوقت اُسْلك طريق المقابر؛ فهو أقصر الطرق لبيتنا، ستجد الخالة أم فارس تسقي الصُبار على مدفن ابنها زميلك في مدرسة «الطفل السعيد»، وستجد خالتك أم إيمان تبكي ابنتها التي ماتت تحت أنقاض بيتهم المهدم بنيران قصف أحرق معه بيارة برتقالهم، قل لها لا تبكِ فما زال لديها صِبية ينتظرون إحدى الحسنيين، بعدها اُعبرْ الطريق وامضِ مِن الموازي «لمنظمة رعاية حقوق الحيوان»، هو أقل خطرا، فالدبابات لا تستطيع الدخول فيه، والصهاينة مسلحون بالرشاشات فقط، يصيدون الأطفال -من باب التسلية- كالعصافير، وأنا أثق في قدرتكَ على الجري السريع.

إذا مررتَ بجنازة؛ فامشِ فيها ولا تتردد، ربما تكون لمُعلِّمك أو زملائك جِهاد وعُمر وعبيد؛ الذين تمزقت أجسادهم اليوم برصاص

مُحرَّم دوليا، لكن إذا شعرت بالخطر لا تحاول البحث عن ملجأ أو مخبأ؛ لأنك لن تجد، حاول الهرب بسرعة، فإن تعُدْ جريحا أفضل من أن تؤخذ أسيراً، وإن جئتني شهيدا فلن أبكيك يا ولدي وسأطلق زغرودة الشهادة كما فعلت حين استشهد محمد الدُّرة وأصدقاؤك الأربعة وهم يلعبون على شاطئ بحر غزة، وصديقتك مارية التي انهار عليها سقف غرفتها وهي تلهو بدميتها، ومريم أتذكرها؟ رفيقتك ذات الثمانية أعوام؛ والتي ذبحها الصهاينة في صفها الدراسي حتى سال دمُها على دفترها... كلهم ذهبوا إلى عالم البقاء والإحساس؛ غابت ملامحهم وبقيت ذكراهم وضحكاتهم ومداعباتهم؛ فالشهداء يا ولدي يعتقون ذاتهم وهم يبتسمون.

إن عُدتَ يا بُني من مدرستك؛ فلن تجدني متعبة ككل يوم من أعباء المنزل، ولن أُرهَق من تنظيف فراشك الذي تَبول عليه كل ليلة مذ استشهد والدك، وقتها لازمك الخوف والرعب، وحِرتُ بك على الأطباء؛ من اليوم يمكنك أن تبول براحتك على الأرض وأنت نائم، فالشمس تتكفل بتجفيفها بعد أن تحطم سريرُك، وستجد مفاجأة في انتظارِك؛ فعمَّتك «أم رحمة» التي اختفت منذ أيام؛ عرفْنا أن دبابة صهيونية قد دهستها، وظل صغارها بجوار جثتها ثلاثة أيام يبكون حتى تمكَّن المارة من دفنها، وسيأتينا أولادها ليعيشوا معنا؛ فعليك ان تعلمُهم الرسم، عليك أن تبحث في حقيبتك عن اللون الأخضر والأصفر والأزرق فهم مثلك يكرهون الأحمر.

وعندما تجيئ يا ولدي؛ ولا تجدني قد أعددتُ لك طعاما فلا تحزن؛ فأشجار الزيتون قد اقتلعها أعداؤنا، ولم يعد لدينا طحين أصنع لك الخبز الساخن الذي تحبه، لكني مازلت أخبيء لك في ملابسي كسرة خبز جافة يمكنك أن تبللها بالماء... وإذا وجدتني يا حبيبي تحت الأنقاض ممزقة الجسد فاسترني بثوبي وشالي، ولا تبك؛ فالوطن لم يضع كله بعد، فوحده يستحق دمعك الغالي، وتذكر أنك إذا أردت الحياة فكن مستعدا للموت، سأنتظرك تأتيني لتقرأ الفاتحة وتسقي الصُبّار، فطريق المقابرأنت تحفظه جيدا، وعندما تعود وحدك للدار أو ما تبقَّى منها؛ العب مع أولاد عمتك واعتن بهم، لا تبحث عن ثياب العيد ولا حلوى العيد؛ فلم أستطع أن أُعدّها لك، لأن جارتنا «أم سُهيلة» التي كانت تساعدني في السنوات الماضية طعنها الغاصب المحتل في بطنها، وأفرغ جنينها... فهل ستسامحني يا حبيبي حين تسمع تكبيرة العيد وأنت تُواريني التراب؟ فقَدَرُكَ يا حبيبي أن يكون عِيدُك لا يشبهُه عيد.

❀❀❀

عُشاق المَوت

عبثاً؛ يحاول الهرب مِن معايشة أخبار الموت ونُهور الدماء المُنثالة ليل نهار في وطنه وعلى شاشة التلفاز؛ أحزان أُتْرعَتْ بها جنبات صدره حتى السَّقم، فجاشتْ ونزفتْ مُقله بالدمع الهتون حتى وَهن القلب، لتندفق أنّاته في نهر حسراته، لكنّه يتنبه دوما لعشقه للحياة، فراح يتلمَّس لروحه شفاءً، ابتغاء قيلولة تداوي القلب المَكلوم؛ فلم يجد سوى الولوج لعالم الكتب الساحر؛ ليجود عليه بهبَّة من الطُمأنينة؛ في وقتٍ باتتْ الراحة والهدوء أندر مِن العَنقاء والخِل الوفي.

باغتّ ركن القصص الرومانسية في مكتبته؛ يتخيرُ واحدة يُحلِّق معها في سماء العُشاق المطرزة بسحائب الأحلام العذبة ومُكابدة أشواقٍ؛ تمنى أصحابها ألا يبرأوا منها، حارَ ماذا يختار، فمُخيلته متربصة به؛ إذ ماتزال تحتفظ بمشاهد تدمير حضارة العراق على يد داعش الإرهابية؛ والتي مافتئت وسائل الإعلام تبثها ليل نهار، فينْهرُ ذاكرته العنيدة في صمتٍ وبحزم: «أودُ الهربَ منكِ»، فتهمسُ له ساخرة: «لا تحلُو الحياة بغير غُصَص»، أدركَ أن مَرامه ومَبغاه صعبٌ، فانصاعَ لجبروت نفسِه؛ واختارَ أسطورة «فرهاد وشيرين وزهرة التيوليب »، لتصبحَ قيلولته رومانسية ممزوجة بالحزن والأسى، وكأنّ قدَرَ العراق وإيران أن يذوبا حُبا وعداوة في آن.

عَشق الأمير فِرهاد الفارسي الملكة شيرين العراقية -ابنة ملك الأرمن- حَدَّ الوَلَه، وكان لها قصر على الحدود بين إيران والعراق؛ تمضي فيه ليالي الصيف في أرض مابين النهرين؛ وتحديدا في»المدائن»، ومازال بقايا قصرها قائما حتى الآن (أمَّا بعد دخول داعش لتدمير المدينة فلا نملك إلا أن تظل بقايا القصر في مخيلتنا)... تقول الأسطورة إن كلاً منهما رأى الآخر في مَنامه، فجمعهما حُبٌ أبدي، جاب الأمير فرهاد البلاد باحثا عنها متنكرا في زي درويش، وحين وصل لمدينتها العراقية «ميسان» وجدها زوجةً للملك «خِسرو»، والذي مالبث ان قُتِل بيد ابنه طمعا في السُلْطة، وأَملاً في الزواج منها.

تقدَّم فرهاد للزواج منها، فاجتمع أعيان المملكة للنَّظر في طَلبه، وكي يضمنوا عدم ابتعاد مَلكتهم المحبوبة اشترطوا على العاشق شرطاً تعجيزياً؛ أن يشقَ جبلا في منطقة كردستان؛ ذلك الذي يقف عائقاً أمام تدفق المياه؛ في مدة لا تتعدى أربعين يوماً! رضخ الأمير لسُلطان قلبه، ورضِي مُقبلاً على شق الجبل، وما إن أوشك على الانتهاء حتى جاءته عجوز متآمرة مع أعيان المملكة تَشي له بخبرٍ مُلفق؛ مفاده أنّ الملكة شيرين قد ماتت، فيُصدِّق المسكين، ويمتطي جَواده صاعدا أعلى الجبل، ليدفعه يأسُه فيقفزا معا لمُلاقاة حَتفه، وحين نزفت دماؤه نبتت من كل نقطة زهرة «تيوليب» كرمزٍ للحُب الخالص؛ وأضحت بدورها رمزاً للعشق مذ عهدِ الفرس وحتى يومنا هذا، وقيل إن اسمها مأخوذ

من الكلمة الفارسية «تولينت» وتعني عمامة السلطان، لأنها تشبه العمامة فعلا.

علِمَتْ شيرين بالخبر المُفجع؛ فذهبت لقبره ومعها سكين برأسين، غرستْ طرفاً في قبره والآخر في قلبها حتى دُفنتْ جواره، ولذلك تنبتُ كل عام وردتان من قبريهما؛ فتكبران حتى تُوشكا على التلاقي؛ فتنمو فجأة نبتة «صُبار» بينهما لتحول دون تلاقيهما!

شبهوها بنهر الفرات لعذوبتها، وأشادوا بمهارتها كفارسة ماهرة في ركوب الخيل وبفصاحتها وقدراتها البلاغية، وقيل سُميت بشيرين لشدة حلاوة لسانها عند الكلام، وفي إيران اليوم نوع من الحلوى باسمها، ومما قيل في وصفها: إنها فتاة ملائكية.. بدر منير.. مضيئة الليل كضوء قمر ساطع.. سوداء العينين كما الحياة.. باسقة القوام كنخلة فضية.. يسيل لعاب الصدف من بعيد حسرة على لآليء أسنان شبيهة بالنور.. أما شفتاها السكريتان فهما عقيق نضير.. وقد اتخذت من عينها الساحرة ساحراً..يدرأ بتعاويذه عين السوء عنها. وقال عنها فرهاد حين زارته -ذات شوقٍ- أثناء عمله لتسقيه حَليباً: «عندما تكون شيرين السَّاقية؛ يصير السُّم لا الحليب شَهداً».. وحين طعنتْ نفسَها قالت: «الروح رحلتْ إلى الروح.. والجسدُ استجاب للجسد.. فتخلصَ الجسد من البعاد.. واستراحتْ الروح من الشكوى».

يَغلق دفة الرواية؛ ينحيها جانبا فتنثال عليه الأفكار الحزينة؛ كيف يحمل الإنسان بين جنباته كل فيوضات مشاعر الحب والعشق

والأحاسيس السامية؛ والتي تؤهله ليعيش إنسانيته بنبلٍ؛ ومع ذلك نجد من البشر من يُهين تلك المشاعر الراقية ويحل محلها الكراهية والعنف والذبح! تراه هو الإنسان نفسه أم أننا نعيش بين نوعين مختلفين من البشر، أحدهما مرهف الحس والثاني مُتعطش للدم؟ تتداعى عليه الأفكار حتى يعاود الصداع احتلال راسه المُفعمة بالأفكار الهادرة والمتلاطمة؛ يتجه صوب المطبخ يعد فنجانا من القهوة المرَّة المتجانسة مع مُر أفكاره، يبتلع قرصا لتسكين آلام رأسه المائجة، يقعد في زاوية الغرفة، يمد يده لـ «الريموت» لعل مشاهدة التلفاز مهربا ملائما لأفكاره المترصدة به، هاهو يختار فيلما قديما بالأبيض والأسود؛ من أفلام الرومانسية التي يعشقها ولا يمل من مشاهدتها، يتناول قليلا من المكسرات لتزداد نكهة القهوة لذةً مُحببة إلى ذائقته، يتكئ على وسادة ناعمة الملمس، يُهيء نفسه لنَيل قسط وافٍر من البهجة والمتعة، فجأة ينقطع تواصل الفيلم، يظهر على الشاشة وجه مذيع مُتجهم القسمات؛ يتلو خبراً حصرياً: «داعش تسبي نساء العراق لتبيعهم في سوق النخاسة»، يسقط الفنجان من يده، وتنسكب على الرواية مَرارة قهوته!

عامِل الترحيلة

تضوع رائحة الخبز الشهية في البيت الريفي المتواضع؛ فتحيل جنباته المتهالكة إلى حديقة غنّاء من البهجة بضحكات الأب وأبنائه الثلاثة وهم يتحلقون سويا حول الطبلية؛ ومن ورائهم زوجتة الشابة المليحة؛ حاملة طبقا من العسل الأسود وبعضاً من الجُبن ذي المذاق المالح الذي يعشقونه وعليها قطع الطماطم؛ وابتسامة الرضا تعلو مُحيّاها الجميل، تجلس جوار زوجها الذي لم تمتد يدُه يوما للقلم رغم عشقها له؛ لكنها احتضنت فأسا؛ تزرع وتحصد، وتمسح حبّات عَرق لؤلؤية، فاستحقت التقبيل والعرفان من تلك الزوجة المُحبة لذلك العامل الأجير؛ والذي أصرَّ على تعليم فلذات كبِده؛ فيُمتعون عينيه بالقَلم تحتضنه أكفُّهم.

كل صباح يَعزف لحنَه البديع والأصيل، فيستيقظ مبكرا مع غَبشة الفجر، يتلو وِردَه، يناجي ربه أن يرزقه قوت يومه؛ إطعاما لزوجته وأولاده، آمِلا أن يكون حلالا طيبا هنيئاً مريئاً، قانِعاً بما أتاه الله، بهدوءٍ يلقِي نظرة اطمئنان على أسرته قبل أن يخرج لعمله، يُقبِّلهم، ويعيد ترتيب الغطاء المُهترئ الذي يحاول أن يجمع بعض أشتاته لأجسادٍ تلاصقت؛ تبغي القُرب والدفء خوفاً من أن تتسرب منه حرارة الفرن الطيني الذي ينامون عليه؛ بعد أن انتهت زوجته من إنضاج الخبز،

ففي هذا الشتاء القارس البرودة اعتادت أن تخبز كل يوم بضعة أرغفة تكفيهم قوتَ يومهم، وبعد أن تطفئ الفرن يتقافز الأولاد إليه مسرعين؛ يتلمسون بقايا حرارته، ثم يغطون في نوم عميق؛ بعد أن تمتلئ البطون حامدة شاكرة؛ فيمنح أجسادهم طاقة ودفأ تعينهم على الاستيقاظ مبكرين نشطين متجهين إلى مدارسهم؛ بعد أن يقطعوا نحو عشرين كيلو مترا مشيا على الأقدام، لتوفير ثمن ركوبة تقلهم، وأنّى لهم أجرة سيارة وجنيهات والدهم تكفي احتياجات البيت بالكاد؟!

تمر السنون ويكْبر الأبناء، فيضيف لجسمه النحيل ساعات عمل إضافية شاقَّة في مصنع نسيج، لم يعد يلتفت لضعفه واعتلال صحته طالما أن أولاده من المتفوقين دراسيا، لكن الأيام أرادت أن تسقيه أول فواجعها، حين يخطف الموت زوجته وهي مازالت في ريعان شبابها، يلفه الحزن، فيتقاطر عليه الأهل والصحاب يقنعونه بضرورة الزواج بمن تستطيع أن ترعى أولاده الثلاث، فيختار واحدة ظن أنها الأنسب، لكنها تنشغل بوليدها وتهمل أبناء زوجها، وتفتعل كل يوم مشاجرات معهم لتلهيهم عن دراستهم، فقد كانت تأمل أن يعملوا كوالدهم في زراعة الأرض، لتحسين الظروف المعيشية للأسرة التي ازداد عدد أفرادها، وفي نفس الوقت كانت تشعر بالغيرة وهي تلمحهم يُقبِلون على دروسهم دون كَلل أو مَلل.

يلتفت حامد -الابن الأكبر- لأخويه الصغيرين يرعاهما؛ ويهتم بشؤونهما بعد أن تيقن من كيد زوجة الأب، يتسامر مع إخوته ويسرِّي عنهم، فإذاهما يحلمان بدخول الجامعة، يصمتُ مُفكراً، فهو الآخر

يتمنى نفس الحلم، ولكن أين للأب الذي زادت أعباؤه، وانّى له المقدرة على هذا الحِمل الثقيل؟ ليس هناك بُد مِن التخلي عن الحلم؛ والتفرغ للعمل لمساعدة الأب الذي بدأ المرض يفتّ في عظامه، في أول اختبار له مع الحياة علمته أن السعادة تكمن في أن يفعل مايجب عليه فِعله، فأنهى المرحلة الإعدادية وهويرمق أخويه واحلامهما بحنو بالغ، فيقرر أن يقتل حلمه ويلتحق بالتعليم الصناعي المتوسط، يخرج بعدها يعمل أجيرا زراعيا تارة، ومع طائفة المِعمار تارة أخرى، جاهَد على أن يتحمل العبء الأكبر حتى يتخرج أخواه، أحدهما يصبح طبيبا، والأخر مهندسا؛ وما إن يمتلئ قلب الأب بالفرحة، حتى يُغيبه الموت؛ وابتسامة الرضا تملأ قسمات وجهه.

يواصل حامد عمله كبنّاءٍ وعامل ترحيلة؛ يحمل الطوب والرمل، يطوف البلاد شرقها وغربها؛ يبني صحراءه؛ فتتحول إلى مُدن أنيقة لا يستطيع أن يسكن بها، يرددُ دائماً: «بقدْر القسوة والمعاناة بقدر رضانا وحُبنا للحياة ولقصتنا التي لابد أن نُسطِّرها بأيدينا، وأنّ القدر لايظلمنا إن اجتهدنا وسعينا»، ولذلك تحاكت قريتهم عن أولئك الصِبية الثلاثة الذين قهروا ظروفهم وانتصروا عليها، ينتبه حامد لحاله؛ فهاهو قد وصل الثانية والثلاثين من العُمر؛ ولم يتزوج بعد، على قدْر حاله يتمم بيته الريفي المتواضع، يقرر أن يتزوج بمن تشبهه في ظروفه، فيكرمه الله بزوجة محبة طيبة؛ وبطفلة جميلة أحالت حياته للحن جميل عشِقه، يقرر أن يُعيد سِيرة والده الأولى؛ فيزيد ساعات عمله موقنا الا وقت للأحلام التي ليس لها أساس واقعي، فسوق العمل لا يرحب بالنفوس

المتألمة اوالمثالية، بل بمن يكد ويتعب فقط، يُحدِّث نفسه دوما بضرورة الكَف عن الشكوى؛ لأن الشقاء الحقيقي هو القفز فوق مستوى قدراتنا، متجاهلين أن التدرج سنة كونية وقانون إلهي، فكان يبدأ يومه راضيا مُقبلا على عمله حتى أحبه كل من يعمل معه ووثقوا فيه، لم يكن دخله البسيط مَدعاة لليأس؛ بل دعوة لحب الحياة، ورغم الوهن الذي أصاب كتفه وجسده النحيل إلا أن عشقه للحياة وتفاؤله يزيدانه إصرارا على أن يسطر حياته بهمّة وشرف؛ لتتفاخر به ابنته وزوجته.

يعشق حياته ومحمولَه القديم وبيته الريفي وأرضه الترابية وشاي الراكية، لايستسلم ابدأ ولايخشى السقوط مهما مرت عليه أيام دون عمل، لا يتوقف عند سطر قصته الحزين؛ بل يتسلح بإيمانه بالله تعالى، يذهب كل يوم مبكرا إلى سوق العمل، يجلس على رصيف الحياة منتظرا رزقه، منتبها لمن يناديه كي يحمل له أكياس الرمل أو مستلزمات المِعمار، يبتسم في قرارة نفسه راضيا مرضيا بهذه الحياة التي تحمل له كل يوم بداية جديدة وقصة جديدة مع كل سيارة تأتيه ليطلب منها صاحبها أن يقوم بعمل ما في مكان مختلف كل يوم.

تتوالى السنون، وتزداد خبرته، فيطلبه أحد المقاولين ليعمل معه بشكل مستمر مقابل راتب ثابت مُجزٍ، يبتهج قلبه، ويطير فرحا ليزف الخبر لزوجته وابنته، معلنا أنه قد آن الوقت ليحقق حلم حياته، ينام قرير العين سليم القلب؛ وفي غبشة الفجر يستيقظ مُتعجلا حاملا بيده مظروفا وأوراقا مُكللة بأختام زرقاء وحمراء وسوداء؛ يخرج من باب البيت مُنشرحا؛ يتوجه مِن فورِه ليقدم اوراقه بالجامعة المفتوحة.

يومٌ لي

ما إن ترجلتُ من سيارة الأجرة؛ حتى أحسست أنّي أسيرُ على قلبي، فبصمتٍ التقينا، لم يبد كلٌ منّا شوقاً للآخر، لكنه كسرَ الصمت بهمهماتٍ أصخيت السَّمْع لأتبينها، كان يرددُ داخله كلماتٍ عذبة للحَلاج؛ أحسستها تعصف بوجدانه؛ وهو يحاول ان يقهرَ صوته كيلا تَبين أوأسمعها: «ذُلوا بغير اقتدارٍ عندما ولهوا... إن الأعزا إذا اشتاقوا أذلاء».

لمحني أنظرُ لعربة البطاطا المتوقفة على جانب الطريق؛ فبادرني: ما رأيكِ؟ أجبتُ بإيماءة خَجلى، ثم عقَّبتُ: هل تعرف كم من الأعوام لم اذق فيها طعم البطاطا؟ وهذه أول مرة آكلها خارج البيت، أعلمُ أنه كان يريد أشياءً خارجة عن المالوف؛ ليحفر لنا ذاكرة جديدة مدتها ساعات فقط! لم يكن بحاجة لذلك؛ فالمقهى ذو الخيمة الذي اختاره لنا على النيل كان كفيلا، والجو شديد البرودة ألجأنا للقعود جوار مِدفأة.

احتارَ قليلا؛ هل يجلس جواري أم قُبالتي؟ حسمَ أمرَه مُرتبكاً؛ واختار المِقعد المواجه لي؛ علّه رغب في أن يُبحر في عينَيي، تنازعني إحساسٌ ببرودة الجو ودفء مشاعره ونظراته، ظل أحدهما يقذفني للآخر طوال عشر ساعات كاملة، لقاءٌ فريد؛ لم نتبادل فيه كلمة واحدة،

تناجينا بالصمت وبضع كلمات قليلات كتبناها على الورق، كُنتُ أحُثه على أن يتكلم لأستدفِئ بصوته؛ لكنه على امتداد تلك الساعات الجميلة اختار لغة الكتابة، هل كان يضنُّ عليّ؟ أم يجعلني أشعر بقسوة صمتي عليه؟

وتعطلتْ لغة الكلام، واكتشفنا وسائل موازية تخترق الروح؛ ولا تدع مجالاً للتأويل، من لحظتها أيقنتُ أنّا لا نحتاجُ للكلام أبدا؛ فالصمتُ في حضرة من نهوَى أرق وأسمى، على الورق الأبيض كتبنا عبارات متناثرة أكملتها لغة العيون، أكتشفتُ أن خَطينا يتشابهان، انتابني إحساسٌ أن امتزاج الروح الذي اعترانا مَحض صِدق.

عشرُ ساعات كاملة؛ لم أحسْ فيها بغير شيء واحد؛ وددتُ ألّو أمسكتُ بتلابيب الوقت لئلا يمضي ويُفرّقُنا، كنتُ منتبهة لكل شيء؛ لفتاتِه، نظرات عينيه، تمتمات شفتيه، همس أنامله، لكنَّ شريط العمر المُترصد لم يغبْ عن ذاكرتي أبداً، أقرأُ في عينيه تساؤلاً واضحاً: كيف عِشنا كل هذه الأعوام دون تلاق؟! لم يحر واحدُنا جواباً، عيون المحيطين كلها ويكأنها صُوِبتْ نحونا وحدنا، لم نكن نُبالي بسوانا؛ اقتربنا، احتضن قدمي بقدميه، تلامست أطراف الأنامل، تعانقت الأيدي، لأول مرة استشعرُ كيف تخترق الأصابعُ الروحَ.

الساعات العشْر توشك على الانتهاء؛ اقتربنا من أن نَّهم بالانصراف؛ فقد أرخى ليل الشتاء سدوله؛ وتأخر بنا الوقت دون أن نشعر، لكنه

فجاة باح برغبته في الجلوس بجانبي، بتلقائيةٍ أوسعتُ له دون تفكير، تركتُ له مساحة صغيرة تكفيه بالكاد؛ فقد كنَّا بحاجة لأقصى قُربٍ؛ في مكان تفترسنا فيه نحو مائتا عَينٍ أو يزيد، طوَّقَ كتفي بذراعه بحنوٍ بالغ، راودتني نفسي أن أُسْلِم رأسي للراحة على كتفه الملاصق لكتفي والذي استشعر دِفأه؛ لكن الخجل عصمني، التقتْ العيون في صمت مهيب؛ صمتٌ مليء بثورة الحكايا و «أوشكَ الصمت حولنا أن يقوله» بتعبير الشاعر جورج جرداق، آنئذ وددتُ ألو كسرتُ كل المحظورات، وألقيتُ نفسي على صدره؛ أشربُ أنفاسه، أضمه وأناجيه بصوت مسموع،أتسَمَّع نبض قلبه، كم كنتُ بحاجة لذلك، لكن رداء الحكمة والوَجل جعلاني أتخلى عن جنوني.

احتضنتُ برفقٍ الأوراق التي جمعت مشاعرنا وأفكارانا وخلجاتنا وحروفنا معاً، رُحْتُ أطويها بعناية فائقة، لمحتُ في عينيه الرغبة في الاحتفاظ بالورق، لكن ربما خوفه من وَجلي منعَه من طلبها، أو ربما أحسَّ أني لم أكن لأُوَدِعَ قطعةً من روحي التي عثرتُ عليها مؤخراً.

رِضا

ألقتْ عليها صُروف الدهر رداء المِحن؛ فتغَضَّن وجهُها بعلامات فواجعٍ متوالية؛ حتى تركها شَبحاً نَسيَهُ الموتُ أوتناساه، بخطوٍ وئيد اقتربتْ منهم، تربت على ظهورهم، تشتمُ رائحة نضارة الشباب، تفَتر ثغرها عن ابتسامة عطوفٍ راضية؛ بعد أن نالت ودَّهم وظفروا بِحنانها . . ساعتها؛ ودَّعَتْ أبناءها وداع مُفارق راضٍ لن يؤوب .

الجوع

افترَشَتْ الرصيف كعادتها مذ سنوات، جوار المطعم الشهير ذي اللافتة الزاهية بلونها الأحمر المُلتهب؛ والمُسدَل فوقها ستائر فخيمة الصنع؛ تحمي اللون من أن يتغير بفعل حُرقة شمس الصيف، وتحافظ على نصاعته من أمطار الشتاء المصحوبة عادة بالأتربة؛ فتتحول معها إلى أمطار طينية لا يليق أن تتراكم على مطعمٍ يَؤمُّه عِلية القوم ذوو المال والنفوذ والألقاب البراقة في عالم الشُّهرة، تتذكر كم مرة يحاول عُمّال المحل إبعادها كي لا تشوه أناقة الرصيف الذي يقبع عليه ذلك المطعم، لكنها تُصرُّ على مكان فَرْشَتِها؛ لتتابع حركة القمامة وهي خارجة في أكياسها الكبيرة السوداء، فتنهض مسرعةً متيقظة لأيدي بعض شبابٍ عابث يبغي التحرش بجسدها، ينادونها فلا تُعرهم التفاتاً؛ تنطلق بهمّة عالية صَوبَ الصندوق الضخم الرابض، تنتقي بعض قِطع دجاج أكلَ اصحابها بضع قضماتٍ وتركوا بقيةً كافيةً تسد جوع أحد أبنائها الصغار لينام قَرير العَين، حريصة هي أن تتغاضى عن جوع آخر؛ جوع العيون الشَّرهة والنظرات التي تنهش جسدها البَض وملامح وجهها المليح، فماتزال تحتفظ برشاقتها وجَمالها رغم سنوات الحزن التي ناءت بها أكتافها بعد وفاة زوجها، تاركا لها صغارٍ أربعة؛ لا يكادون يعلمون غير

دنيا حجرتهم الصغيرة فوق سطح بيت مُتهالِك؛ تتراكم قيمة إيجاره الشهري حتى تعاظم المَبلغ، فاسترحمتْ مالك البيت ليُمهلها بضعة أشهر إضافية علّها تستطيع السداد.

تلتفتُ المراة ذات اليمين وذات الشمال؛ تنادي على أكياس مناديل صغيرة زهيدٌ ثمنها، ومع ذلك تُصر على تقديم عرضا يجذب الزبون؛ حين تَهدي واحدة إضافية في حال شرائه ثلاث عبوات، تحين منها التفاتة من وقت لآخر لطفلها النائم مُتدثرا بحجرها الدفيء اتقاءً لبرد الشتاء الذي خَبَّره جيدا؛ نظرا لخروجه يوميا مع أمه، فلم يصل بعد للسِن المناسبة ليصطحبه إخوته إلى المدرسة، يفتح الطفل عينيه المُثقلتين بإغراء النعاس وغواية الدفء بين فخذي أُمه، تغشاه نظرةٌ تَعيها الأُم جيدا، فتمد يدها لكيس مربوط بعناية خبأته بين طيات ملابسها ثم وضعته تحت ركبتها؛ خوفا من القطط المارة العاشقة لرائحته النفاذة، تفضُّ الكيس لتُخرج قطعة من الدجاج الفاخر وقليلا من شرائح البطاطس المقلية بالزيت ذي النكهة المميزة؛ تلك التي تجعل الناس يتهافتون على هذا المطعم تحديدا، تُلقِم وليدها بيدٍ؛ وبالأخرى ترْبتُ على ظهره؛ ولسانها يلهجُ بالدعاء: «مَطْرَح ما يِسْري يِمْري».

يكتنفها تعب ساعاتٍ طوال تمضيها في البيع والمناداة على الزبائن، وعيناها القلقتان اللتان لاتبرحان صندوق القمامة؛ كلما لمحت عُمال المطعم يخرجون بأناقتهم المعهودة؛ حتى تُسارع الخُطا؛ تلتقط بعضا

مما يحملون؛ قبل أن تتنافس كلاب وقطط الشوارع على التهامه، تنظر لحصيلة رزقها من المال القليل والطعام الوفير فتشعر بغبطة ورضا، تكتفي برزق يومها، فتشير لولدها؛ فيهبّ يساعدها في حَمل بعض الأغراض، ثم ترفعه بدورها فوق كتفها على عَجل؛ تلحق الحافلة التي ستقلها لبيتها، وما إن تصعد حتى تسرع إلى أول كرسي تقابله فرِحة بذلك الانتصار الكبير، فأمامها نحو الساعة والنصف حتى تصل لحارتها؛ وقدماها لا تقوى على حملها طوال هذه المدة، كم مرت عليها أيام وهي واقفة مستندة لحديدة الحافلة؛ تنخر في ظهرها؛ فتزيدها ألما على ألم، تعلم أن المنطقة العشوائية التي تقطن بها كثيفة السكان؛ لذا فالحافلة دائما في حالة تكدس شديد، تسير مائلة في اتجاه جانبها الأيمن؛ مما يتسبب في ذعر يومي للركاب الذين يرفعون عقيرتهم وهم يسبّون هيئة المواصلات التي لا تلقي بالا لشكواهم لتغيير الحافلة أو إجراء الصيانة المُعتادة لها.

على باب الغرفة ينتظرون، يتقافز عليها صغارها مُهللين؛ فقد عادت مُحملة بأطايب الطعام، تلمح في ركن الغرفة ابنها الأكبر، صار صبيا في الخامسة عشرة من عُمره، بدأ شاربه يغذ الخطا على استحياء فوق شفتيه، أحيانا تُدهش حين يحدثها؛ فقد بدأت نبرات صوته تتغير مُعلنة أنه في الطريق لاكتمال رجولته، تبتسم الأم بحنان وهو ترنو إليه بناظريها؛ فهاهي قد اقتربت من جني ثمار أول قِطافها، فبعد عامين

يتخرَّج من المدرسة المتوسطة للتعليم الصناعي بعد أن اختار دراسة قسم الكهرباء، وقد أسعدها اختياره؛ فسوق العمل يتعطش دوما لهذا التخصص، كل الأجهزة لا تستغني الآن عن الكهرباء، حتما سيتربَّح مالا وفيرا يساعدني في تربية بقية إخوته، وآهٍ لو سددتُ الإيجار المتراكم مذ سنوات، ونبدأ في البحث عن شقة مكونة من حجرتين وصالة، عندها تكون الدنيا قد تصالحت معي؛ بعد أن أذاقتني مرارتها، انتبهت الأم إلى أنها تُحدِّث نفسها، ومازال اطفالها ينظرون إلى لفافة الطعام الذي تحمله.

بالتساوي تقوم الأم بتوزيع قِطع الخبز على أبنائها؛ وقليل من البطاطس المحمرة الشهية، وتنتبه لعيونهم المُحلِّقة بقطع الدجاج، فتمد يدها مُسرعة تزيل أول جزء قد يكون لامس شِفاه أصحابها في المطعم؛ فتُنحيه جانبا خوفا من أية أمراض أو عدوى، فهي حريصة على سماع المذياع؛ وتعي تماما كيفية انتقال العدوى في الطعام والشراب، علمتْ أن فيروس الكبد الوبائي لا يُرى بالعين المُجردة، لكن كثيراً من أهل حارتها مصابون به لاعتمادهم على الشرب من الأسْبِلة بكوب واحد مصنوع من الصفيح؛ مربوط بسلسلة خشية سِرقته، ينتقل عشرات المرات كل يوم بين الشفاه، فتنتقل العدوى للجميع بمجرد ان يشرب منه مريض واحد قد لا يعلم أنه يحمل الفيروس الوبائي.

يَقنعُ الجميع بنصيبهم من الطعام، لكن بطن الصبي تأبى فيتجرأ ويطلب من أمِّه قطعة «إضافية»، وهنا تتفاجأ الأم بتطلعات وليدها؛

وهي العاجزة عن تلبية مَطلبه، يناديها؛ فتعبثُ أصابعها في اللفافة فلا تحصد إلا خواءً، تنظر له كسيفة العينين، لكنه يبادلها نظرات التمرد والغضب، الجوع يتعارك مع أمعائه دون أن يترك له فرصة للاختيار؛ يمد يده لنصيب أخيه الصغير مُسرعا يلتهمه على استعجال، يصرخ الصغير بهستيرية مُولياً وجهه شَطر أُمه، فتفزع من المفاجاة والتي لم تخطر لها على بال، إذ كيف يتجرأ الصبي ويسرق طعام أخيه؟ وكيف حرَّضته بطنه اليوم لتعلن أن تساوي الأنصبة ليس عدلا وأن صمْتَه لم يعد حلا يرضيها؟ يضرب المراهق دون ان يدري على وتر ضَعف الأم تجاه صغيرها الجائع؛ وخوفا من انتقال عدوى التمرد لبقية الأشقاء، شرعت بحزم تجذب قطعة الدجاج من بين اصابعه وقبل أن يتلقفها فمه ليلوكها، لكن يد الصبي كانت أسرع وأقوى من يد أمه الواهية المُتعبة، تلطمُه على خده فلايبالي، وبعزمٍ ينجح في أن يُلقي بها في أتون جوعه؛ يصرُّ على ابتلاع المُضغة على عَجل، يتغضَّن وجه الأم بعلامات غضبٍ نارية، لم تدرِ إلا والسِّكين بيدها ينغرز في صدر فَلذة كَبدها؛ تُلقِّنه ما تعلمته من الوطن القاسي أنَّ «الجوع جريمة لا تُغتفر لمُرتكبيها»، يسيل دم الصبي مِن فيهِ مختلطا بفتات طعام لم يظفر الصبي بابتلاعه باقتدار؛ تنهار الأم المفجوعة ذاهلة؛ تشقُّ صرخاتها المُدوية قلب السماء مُولولة: «كان يا حَبِّة عيني جعان.. ياضنايا».

خُلْع

دلفتْ إلى القاعة، تتلهفُ لحظة الانتشاء، ناداها ذلك القابع فوق المِنصة يحمل مِطرقة العدالة، بخطوٍ وئيدٍ واثقٍ دنتْ، فتحتْ حقيبتها، أخرجته بحرصٍ وصمت، قصَّتْ شعرها الكستنائي الهادر، أهدتْه للقاضي تسأله: وكيف أنزعُ جلدي، كي أنسى يوماً مَسّدَ فيه شَعري أو تَوسَّد جَسدي ؟ سألها: إذن تُصرين على الخُلع ؟ أجابَه بريقُ التحدي في عينيها.

الكَفَن

الكتابة عشق وهواية وحياة نابضة؛ وبقَدْر ما نتلذَّذُ بها بقَدْر ما قد نتنكَّب بعض مشاقها، لكنّا دوما نلبسُ رداء الرِّضا، بَيد أن الساعات الطوال ما بين الكتابة والقراءة أرهقتني؛ حتى عانيت بعض آلام في فقرات الرقبة، فولَّيتُ وجهي للطبيب مُسرعة، فنصحني بإجراء رنين مغناطيسي «إم آر آى»، الجهاز عبارة عن أسطوانة مجوفة تكفي شخصا واحدا، جاءني طبيب الاشعة، فتمددتُ على طاولة خاصة، وربطَ يديي ورِجلي كي لا أتحرك؛ ووضع سماعات على أذني تحجبُ ضجيجاً يصدر عن الجهاز حالَ تشغيله، وأفهمني أنّي سأمكث داخله نحو الساعة؛ ثم نصحني بالنوم كيلا أصاب بالملل؛ وبكبسة زِر؛ تحركت الطاولة، ودخلتُ في جوف الأسطوانة؛ واعتراني إحساس غريب بأني في القبر فعلا.

لفَّ دَبيب السكون المكان بعد أن غادرني الطبيب؛ أغمضتُ عيني أرجو نوماً فلم أفلح؛ أنصتت أُذني لفزعة الصمت المُطبق؛ خامرتني رائحة فكرة مُرعبة؛ خِلت نفسي وحيدة بعد أن تولى الأهل والصِّحاب؛ كلٌ عاد لمَبتغاه وعمرِه المُتبقي؛ أحسست أني في انقطاع عن الدنيا؛ فشملني الوجل والفزع، ارتعدت، تضاربت أفكاري، تسارعت أنفاسي،

وعبثا أحاول تذكر بعض خيْرات قدمتها يداي، أجاهدُ في ترتيب الأمر استعدادا لمُجابهة مصير محتَّم يتربص بي الآن، هُيئ لي أني في حَضرة الكرام البررة؛ يسألونّي؛ علَيّ أن أجتاز الاختبار التمهيدي: مَنْ ربك؟ ما دِينك؟ مَنْ نبيك؟ هدأتْ روحي قليلا، فالإجابة أحفظها عن ظهر قلب، فجأة نهرتني نفسي قائلة: هل سيطاوعك عقلك فتتذكرين، ويرضى عنك لسانك فتنطقين بما تحبين؟ أنّى لك هذه الثقة في أعضائك؛ وهي تستعد لتشهدَ ضدك حتى تُجْهِزُ عليكِ؟! هذا الاختبار التمهيدي ليس هَينا كما تتخيلين، فكرِي في أمر آخر.

هِبتُ ووجِلت وتطلعت للمرحلة الثانية علَّها تكون أسهل؛ تراءت لي ملائكة بيض الوجوه كأنَّها الشمس؛ آتية بكفنٍ وحنوط من الجنة، واستشعرت ملك الموت عند رأسي يقول: «أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان»؛ فتسيل روحي كما تسيل القطرة في السقاء، فيضعونها في الحنوط؛ لتضوع أطيب نفحة مسك، يتباهون بي ويقولون: هذه فلانة بنت فلان؛ حتى تصل روحي للسماء السابعة؛ أسمع مولاي وربي يجللني بقوله: «اكتبوا كتابها في عليين»... تنتابني فرحة عامرة يهتز لها الجسد والروح؛ فتأبى نفسي المتربصة إلا أن تنهرني مستنكرة: وهل أعمالك في الدنيا صالحة تماماً، وروحك طيبة حتى تنالي هذا الشرف العظيم وتدخلي الجنة بغير حساب؟ أفيقي... تلك مكانة يصعب الوصول إليها، دعي الأحلام جانباً، وضعي نفسك في مكانها اللائق فأنت لست من هذا الفريق.

ينطلق ناظراي نحو الفريق الآخر؛ ملائكة سود الوجوه؛ وملك الموت ثانية يجلس عند رأسي يقول: يا أيتها النفس الخبيثة؛ اُخرجي إلى سخط الله وغضبه، فيتقطَّع العِرق والعصب كما يُنزع السّفود من الصوف المبلول، فيهصُرني الألم وتتمزق الضلوع، تصعد الملائكة لملأ أعلى، فيفزعون ويتساءلون: ماهذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلانة بنت فلان؛ فلا تُفتح أبواب السماء ولا أبواب الجنة حتى يلج الجمل في سَم الخياط، فيقول عز من قائل: اكتبوها في سجين، فأتذكر قوله تعالى: «ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق»، أنصتُ لرجل قبيح الوجه والثياب يقول: أبشري بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعدين... أنا عملُك الخبيث... أنتحبُ صارخة ويعلو صوتي: «رب لا تقم الساعة، رب لا تقم الساعة»، هذه المرة أنهَر نفْسي؛ أعنفها وأبرئ حالي؛ أصرخ فيها: لم أشرك بربي أحداً، لستُ من هذا الفريق أيتها النفس التعِسة.

أُسائل عقلي من أي الفِرق أكون؛ ربما كأهل الأعراف الذين تساوت حسناتهم بسيئاتهم، فينظرون لأهل الجنة ولأهل النار لا يعرفون أين سينتهي بهم المطاف، يا له من وقت عصيب يمضونه حتى يهل عليه ربهم؛ فيظلهم برحمته ليدخلهم في نهاية الأمر مع أهل الجنة؛ تُردد روحي:»حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت..»

يعود طبيب الأشعة، وبكبسة زر أخرى يخرجني مِن اللحد؛ يفك قيدي؛ أنهضُ مُسرعة، ألملمُ شَتات نفسي، تهدأ أفكاري اللاهثة؛ تحلق روحي مجدداً في سماء التفاؤل، أخلع كفني على عَجل، أقصدُ زي الأشعة الخاص، ترتسم بسمةٌ جزلَى على شفتي؛ يتساءل الطبيب في عَجب عن الفرحة الذائبة في عيني؛ أرنو إليه هامسة: «لدي فرصة ثانية..»علّي أعمل صالحاً فيما تركت».. تزدادُ دهشته ولا يعلِّق؛ أعلمُ مايدور في نفسِه، خرجتُ من الغرفة مسرعةً متشبثةَ بوَهج المِنحة الربانية الثانية.

لَحَظتي السِّحرية

وتتوالى الأيام ولا يأتي الصبح بجديد؛ كل لحظةٍ تَلفى نفسَها وهي تهدر طاقاتها جميعها؛ فقط لتتأقلم مع الرتابة؛ ولاتجد سوى سُحب الإحباط وأمطار القلق وطيور الهم تعشعش في عقلها؛ تشعر أن الحياة فقدت معناها، بعد أن أصبحت على شفيرجُرف هار؛ لن تحتاج إذن لتختلق أعذاراً، فالانسحاب من الدنيا هدفها ومبتغاها، رغم كونها الشابة المفعمة الحيوية ذات الأربع والعشرين ربيعاً، تقرر ابتلاع كمية وافية من الأقراص المنومة لتنتحر؛ وتنسحب في هدوء؛ بعد أن خيمتْ أسراباً من الصمت على جدران حياتها.

إرضاءً لهم تخلت عن حلمها وموهبتها لتكون قالباً يشبههم؛ أوهمتْ عقلها أنها تستمتع بحياتها؛ حتى وإن كانت حسب مزاجهم هم، وطبقا للنمط الذي أرادوه لها لا كما ترغب هي وتود؛ لم يدركوا خلايا الحزن النائمة في حنايا روحها، وصمتَها المُبرح، ومآقيها النازِفة؛ حتى أحستْ أن الحياة باتت ضرْبا من الخيال المحال؛ وغدا الطريق لإصابتها بالفُصام في الشخصية مُمهدا مُعبدا، هكذا حالها مُذ ودَّت أن تكون رسامة، حين أعلنت عن رغبتها الملحة في الالتحاق بكلية الفنون الجميلة؛ لتصقل موهبتها، رفض والدها الدبلوماسي ودها أن تتخصص في العمل السياسي كي تشبهه مُفاخراً بها.

كم حاولتْ إقناعه دون فائدة، لكنها لن تستسلم؛ فالعمل الدبلوماسي والسياسي لا يروقانها، تُقرر أن تُعيد اكتشاف نفسها وربما تغير نوع دراستها لا بأس؛ فقد تجد حلا مناسبا للجميع، هي الابنة الوحيدة؛ وتعلم تماما الأمال المعقودة عليها، ولن تستطيع أن تغضب والديها لأنها عالمهم كله، تتذكر نصا أعجبها في إحدى الروايات؛ مدَّتْ يدها تُعيد قراءته ثانية، تبحث عن الصفحة التي خطَّتْ تحت بعض سطورها بالقلم الأحمر، تعاود قرأتها: «لحظة تكتشف نفسك ينبوعاً يندفق فَيضاً وإبداعا لا شُحاً وإِقلالا؛ وتجدكَ تملك القدرة على العطاء؛ لكنك تعيش وسط عالم على قلوبه أقفالها؛ منغلق الفكر والأفق؛ يُضَيق عليك ميدانك لدرجة الاختناق؛ ولا يفهم أنك ماجئت للحياة إلا لتُجملها، وتقدمها للآخرين بصورة أفضل بل وتقدم نفسَك بما يليق؛ يصيرُالهرب من بشر كهؤلاء هو المَلاذ المُرتجى، ذاك ما فعلته المحامية المرموقة؛ حين غادرت وطنها لتقدم خدماتها لأناس يختلفون عنها في الدين والمذهب ولكنهم مفعمون بالإنسانية»، تغلق الكِتاب، تعرف تماما أنها تعيش وسط مجتمع شرقي؛ يختلف في عاداته وتقاليده عن الغربيين، الذين يَسهل عليهم ترك أُسَرهم والرحيل بعيدا، بينما في مجتمعها الأمر مختلف تماما خاصة للبنت، وإن كان قد أصبح مقبولا للشباب دون البنات.

تقررُ أن توافق والدها بالالتحاق بكلية السياسة والاقتصاد؛ شرط أن يتركها تمارس هوايتها في الاشتراك في الأعمال الخيرية؛ تلك

التي تهدف لمساعدة الأطفال تعليمياً وصحياً، لأنهم إن لم يتلَّقوا الرعاية المناسبة فسيصبحون قنابل موقوته تدمر الوطن حين يكبرون ويتذكرون أن لا أحد انتبه إليهم ورعاهم، لكن الأسرة تترصد لرغباتها بالرفض التام، إذ كيف تزور الأماكن الشعبية بأزقتها وحواريها؛ وبأناسٍ لم تعرفهم من قبل وهي الفتاة المُرفهة، ذات التربية الناعمة؟ ومن ثم يتُضطر للتعامل مع نوعية من الناس لا تليق بوسطهم الاجتماعي المتميز، وهذا من شأنه أن يؤثر على معايير اختيارها للعمل الدبلوماسي.

تمرُّ الأيام وهي تُصِر على رأيها؛،وفي ذات الوقت تفشلُ في وأد احلامها ورسالتها التي تود من خلالها وضع بصمتها في الحياة، تتعقد حياتها أكثر حين يطرق بابها ابن صديق والدها طالباً يدها؛ مُعلناً ترحيبه الشديد بأن تكمل دراستها عقب الزواج، ولأنه يعمل كذلك في السلك الدبلوماسي فالأمر يتطلَّب سرعة السفر لفرنسا ليتسلم مَهام عمله، تُدهش حين تبدي أسرتها موافقتها بسرعة غير معهودة، إذ وجدوه حلا لمشكلتها، فهاهي تتزوج ممن يعمل بنفس مهنة والدها، ويتساوى معهم في المكانة الاجتماعية والمادية، وسوف يشجعها على إكمال دراستها كما اراد والدها تماما، فهو بحق عريس مُناسب من كافة النواحي.

تُزفُّ المسكينة؛ وتسافر لتعيش لأول مرة في الغربة بعيدة عن الأهل، تكشف لها الأيام عن زَيف الوعود التي قطعها الزوج على نفسه، وجدته يعيشُ شخصيتين مختلفتين، في البيت يمارس تسلطه ويمنعها

من ممارسة حقوقها؛ رافضا أن تُكمل تعليمها، وفي حياته العملية وبين أصدقائه يمارس مثالية خادعة؛ ويَدَّعي أنها التي ترفض مُفضلة الركون للراحة! حاولت المَهيضة إقناعه بشتى الطرق فلم يستجب لإلحاحها، اتصلت بأسرتها فلم يستطيعوا إثنائه عن رأيه، وتتوالى الشهور والفراغ والملل يكتنفاها، تنتبه لتأخر علامات الحمل، لكنها تشعر بارتياح بالغ في قرارة نفسها، فالرجل الذي يفقد احترام المرأة له؛ يرفضه جسدها كما تأباه وتنفر منه روحها.

تنزوي في ركن بعيد تغالب ذروف مدامعها دون طائل، يكتنفُها الصمت والحزن طويلا، وتتعاقب الأيام والليالي ولا أمل ينبئ عن تحقيق ماتتمناه، تمتنع عن الطعام حتى وهنت، تضيقُ خياراتها في الحياة، وتقرر أن تنهيها في لحظة ضعف شديد تملَّكتها، تفكر في ابتلاع كمية من اقراص المنوم لتتخلص من روحها بشكل هادئ؛ ودون أن يشعر بها أحد، فالانسحاب من الحياة هو هدفها الأن، بعد أن فقدت رونقها ومعناها تمد بصرها لعلبة الدواء القابعة دوما بجوار سريرها، فلطالما أخذتْ بعض الحبوب المنومة كلما أرقها السهد وطول الحزن، ترتاح كثيرا لهذا الحل السهل.

تحين منها التفاتة لروايتها التي حرصت على اصطحابها معها وكذلك بقية كتبها؛ تمد يدها لها أولا؛ فكم شغُفت بها، الآن تتذكر سُطورا أعجبتها، ووضعت تحتها خطوطا واضحة؛ تعيد قراءتها:

«كُن أنت كيفما تود لا كما يودك الآخرون، لا تكن نسخة من أحد ولو دفعوك إلى ذلك بدافع الحُب، فقد لا يدركون أنهم يُغرقونك في محيط حبهم هذا، واعلم أن الله لم يخلق إنسانا ولا ورقة نبات مماثلة للأخرى، ومن حقك أن تستمتع بحياتك حتى آخر لحظاتها، بل وتُجملها، ولتغرسْ غرستك ولو كان يومك الأخير فيها، لأجل أن تترك أثرا يجمِّل حياة الآتين بعدك... اِعشق لحظتك الآنية، وأمِط اللثام عن جمالٍ مختبىء داخلك، واشحذ همَّتك، وابحثْ عن هدف لوجودك في الحياة، كُن مُختلفا عن غيرك، ولا تُجهدْ نفسك في التفكير في حكم الآخرين عليك؛ فقط اعمل وأتقن ونمِّ مهاراتك؛ حينها تتوالى نجاحاتك، وسيصفق لتميزكَ من أرادك من قبل أن تُشبهه هو، بل وسيتمنى ألو كان مثلك».

تأخذ نفسا عميقا، يعمُّها إحساس جديد مُلتذ، هذا الكاتب العظيم الذي يملأ الأسماع والأبصار؛ هاهو يدفعها دون أن يعرفها لتثبت على مواقفها، بروايته تلك؛ يرسلُ لها رسالته الخاصة؛ ليته يعلم ماذا فعلت بها سطوره، ليتها تلتقيه لتبثه شكرها، فهاهو يعيد إحياءها من جديد، جمعت أحزانها واتراحها وألقت بهما خلف ظهرها، اعتدلت في جلستها، مدّت يداها تتناول بعضا من العصير لتسترد قليلا من عافيتها التي تدهورت في الفترة الأخيرة، تُحدِّث نفسها: «الحياة مغامرة ومجازفة يجدر ألا ننسحب منها، بل علينا حين نسقط أن نعاود

النُّهوض من كبوتنا، وأن يُسبرَ كل منا أغوار نفسه ويتأملها؛ ليدرك قدراته وطموحاته، ويصرُّ على أن يكون ذاته بكل بساطة، وأن يتسلَّق وعورة نفسِه كما يتسلق الجبال ليجدَ مكانة ومكاناً لائقاً به، فكل يوم جديد هو فرصة مُتجددة لاكتشاف أنفسنا واكتشاف الحياة، إدراكُنا للموت وأنه مُنتهانا لا يعني الاستسلام قبل الزمان بزمان؛ بل يتوجَّب علينا إدراك قيمة الحياة والتمسك بحقنا في العيش فيها، وألا نكون مُجرد نقطة عابرة في محيطها، فلو كانت بلا قيمة ما سكنَّاها بإرادة إلهية، ولعبَرناها مباشرة إلى الآخرة، أما افتقار الحياة إلى معنى فالذنب ذنبنا نحن، إذا فشلنا مرة فلنعُد ونتخيل لحياتنا قصة جديدة وهدفا آخر جميلا؛ لنجعلهاَ قصة تستحق أن تُروى، ساعتئذ ندركُ لحظتنا السحرية التي نعيد فيها اكتشاف ذواتنا، ونتأكد أن الهروب من الحياة عَين الجنون، وأن علينا أن تجازف مادمنا أحياء. يشع من عينيها بريق الفرح، تنهضُ جزلى متوجهة صوب صندوقها الذي اصطحبته معها مذ فارقت بيت أبيها، تفتحه؛ تُخرجُ ألوانا ولوحة بيضاء وعلبة فرش الرسم، تبدلُ ملابسها على عجَل، تضعُ بعض احتياجاتها الضرورية في حقيبة صغيرة، تلتقطُ قلماً تخطُّ على ورقة صغيرة: «لن أتخلى عن لَحظتي السّحرية»، تضعُها على فِراش الزوجية، تمضي بهدوءٍ لباب الشقة، تغلقه خلفها بحَسْم.

❀❀❀

عَينُ الحبُ لا الكُره

ما ندمتُ في حياتي قَط على سؤالٍ وجهته لأحدٍ قدر ندمي على ذاك السؤال اللعين الذي أحال بعض أيامي إلى جحيم، فقد قمتُ بزيارة جارتي السورية لأداء واجب العزاء في وفاة شقيقتها، قعدتُ بين السيدات اللاتي أتين لأداء واجب العزاء، وبفضولٍ اعتدناه سألتها عن كيفية الوفاة؛ وليتني ما سألت، فقد حكتْ لي كيف أن أختها -رحمها الله- كانت تعاني من سرطان بالرحم؛ وبما أنها تقطن في إحدى القرى السورية الحدودية مع العراق بما يعني وقوعها تحت سيطرة وإدارة داعش؛ فكان ولابد أن تُوَقِع على تصريح خاص يسمح لها بالتوجه للعلاج في عيادة متخصصة بدمشق (دار الكُفر كما تسميها داعش)، على أن تعودَ في مدة أقصاها عشرة أيام لقريتها الحدودية، طالت أيام العلاج الكيماوي بالمسكينة عن الأمد المسموح لهأ بضعة أيام، عادت بعدها لقريتها تتوق لفترة رعاية خاصة يعرفها أصحاب هذه الابتلاءات العظيمة؛ ترقبتها أفراد داعش وداهموا منزلها فماتت المسكينة صريعة تحت رُكام عرش بيتها الهاري!

تفجرتْ نُهور الدمع في عينيّ، وهَصرني أنينٌ مُوجِع وأنا أتذكر كيف بكى جذع النخل وتوجع ساعة تخلى عنه رسول الله صلى الله عليه

وسلم وتركه ولم يستند إليه؛ وارتقى دَرَجاً خشبياً ليؤدي شعائر خطبة الجمعة؛ وجَنح خيالي لذكرى أخي -رحمه الله- والذي تُوفي غريقاً؛ فأبَت خلايا النحل التي كان يهوى تربيتها إلا أن تموت كمداً وحسرةً عليه؛ وفشل والدي في رعايتها رغم أنه هو من علَّم أخي تربية النحل، وتلك زروع ونباتات بل وحيوانات نراها ونسمع عنها لا تطيق عيشا بعد فراق أصحابها فتتبعهم رادفة راضية، وكأنها تُلبي نداء اللقاء في عالم أكثر طهارةً وصِدقاً، أو لم نَرَ حيوانات تحن على صغارحيوانات أخرى فترعاها وتهتم بها؟ فما الذي جعلنا في مرتبة أقل من الحيوانية والله سبحانه فضَّلنا على كل مخلوقاته ونفخ فينا من روحه؟!

من منا لم يلمس كيف تحن الأشياء بما في ذلك الجماد والأماكن لأصحابها؟ أكادُ أُجزِمُ أنها تبكي وتحزن وتذبل وتموت وتفرح وتستعد وتستقبلنا وتودعنا وتصادقنا وتلهو معنا، بل وتنتظرنا وتتوق إلينا وتأنس بنا وتتوجع وتتألم وتئن لأجلنا، أماكن وأشياء تعشعش في حَنايا الذاكرة؛ يشدنا إليها الحنين، نتسمع نداءاتها واستغاثتها؛ تستحلفنا أن نرأف ونُحِس بوحدتها، ونتمنى لو تدثرنا بحنانها وحَدبِها، وعَلامَ العجب؛ أولم يتفجر الحَجر فينبع منه ماءً غدقاً؟ أو لم يخبرنا ديننا الحنيف أنّ مَوضع سجود المرء يبكي عند رحيل صاحبه؟ أو لم نرَ رأي العين كم من جمادات تَلَفَت ومنازل انهارت بغياب أصحابها؟ هذا حال الجماد والذي يُضرب به المثل في القسوة، فما الذي جعلنا أشد منه قسوة؟!

كدتُ أُجَن في عزاء صديقتي؛ وأنا أعقدُ مقارنة في خيالي بين أنواع من البشر فقدتْ إنسانيتها، وجعلتْ العالم أكثر بشاعة وتقتِيلاً حتى غدتْ الحيوانات في مرتبة أسمى وأجَلّ منا، فالحيوانات لا تصيد إلا وهي جائعة، ولا تشرب إلا وهي عطشى، أما إنسان عالمنا القبيح فقد بات مُتعطشاً دوماً لسفك الدماء؛ فلا هو بمَرْوي ولا بكافٍ نفسَه عن فسادها، صار العالم كله فاقداً لإنسانيته؛ بات القتل بدم بارد دينهم وديدنهم وإن اختلفت الطريقة؛ فهاهم الصهاينة يتسامرون ويتبارون فيم بينهم مَن يصيد أطفال فلسطين ببندقيته، وكأنهم يصيدون يماماً وعصافير؛ وكلما سقط طفل هللوا فرحاً وبهجة؛ وآخرون يبقرون بطون الفلسطينيات بحثاً عن جنين يقتلونه قبل أن يرى نور خالقه؛ ودول تحاصر أخرى مستضعفة لتفنيها جوعاً؛ وأخرى تقيم سُدوداً وحواجز لتُميت غيرها عطشاً، ونظم اقتصادية تعيش حياة الوَفرة؛ فتفضِّل أن تلقِي ما فاض عنها من خيرات في قاع المحيطات على أن تصدره لدول تعاني الفاقَة والمجاعات، وعقول مُتحجرة يتملَّكها التمييز الطائفي والعرقي فتذبَح وتحرق مخالفيها وهم أحياء؛ طالما لم يَنضووا تحت لوائها.

الأديان كافة دعتْ إلى الرحمة والرفق واللين والتسامح والود والتراحم والتعاطف والتكافل والمؤازرة؛ واحترام اختلاف العقائد والمذاهب والمِلل والنِّحل، ودعتْ للتقارب بين الشعوب والقبائل،

ولو شاء الخالق لجعل الناس جميعا أمّة واحدة، لكنه أراد الاختلاف وكفى، فما بال عالمنا وأُناسه يعانون ضيق الأفق وسوء التربية الأخلاقية وسيطرة الشهوات والأطماع والغل والحقد وفقدا للإنسانية؛ التي هي أثمن وأروع ما خلقه الله حين نفخ فينا من روحه.

أفيقُ من خيالاتي؛ وأعود لجارتي أسمعها تنتحبُ وتبكي أختها؛ وأنا أحَدِّث نفسي أنّ ماوقع عليها ليس سقف بيتها بل سقف إنسانيتنا نحن؛ حين تهدّجتْ جُدران ضمائرنا، ومالنا غير المولى القدير ليعيد صياغتها كي ننظر للكون المُسَخّر لنا بعين الحُب التي تُعمِّر لا بعين الكره التي تُدمِّر، أُغادرها على وعد بزيارتها قريبا، أخرج مُحاولة الهروب من بشاعة ماسمعته، قُرب الباب تتناهى إلى مسامعي حكاية أشد حزنا بدأت واحدة من السيدات الجالسات في سرْدها، بشدة أصفعُ الباب خلفي رافضة العيش في عالم كهذا؛ سمْته التوحش والوضاعة؛ ما إن وصلت بيتي ؛ حتى هرعتُ والقيتُ نفسي تحت ماء الدُّش البارد؛ أغسل جسدي وروحي مما علِق بهما من أدْران اخترقتها.

لَوْلا أنَّ أهلكِ أخْرجوني

بوهنٍ شديد؛ جلست الأم الثكْلَى التي أَمَضَّها الحزنُ الجاف؛ واكتظَّ فؤادها بالوجع؛ حتى طَرَّزَ جسدَها؛ وهو يستقبل بواكير الأعوام الأربعين؛ تمسح دمعها وهي تتذكر ساعةَ وداع صغيرَها؛ الذي ماكاد يشِبّ عن الطَوقِ ويَغُذُّ الخُطى نحو ريعان شبابِه؛ إلا وطافَ مُدن «الأحزان» بوطنه، باحثاً عن بارقة أملٍ وعملٍ يؤمِّنان له معيشةً بسيطةً؛ حُلمُه كأمثالِ الملايين البسطاء من أهلِ بلدته الذين يسعون حَثيثاً نحو لقمة حلالٍ؛ تقيهم إراقة ماء الوجه بذُلِّ السؤال وكَدَرِهِ.

لم يجدْ الشابُ إلا الغربة طريقاً، فانْتَعل قلبَه، وتحاشَي النظر لانسكاب أدمعِ الأمِّ الرؤوم ولهفة حُضنِها المُلتاع، فتَمتْرَست المِسكينة بالصمت حتى ابتلعها، ولسانُ قلبها يستجديهِ متوسلاً هاتِفاً: «عُد ثانيةً يا ولدي ولا تطِلْ غيابَك؛ فلا أودُّ التدربَ على بِعادكَ» .. فهل تراهُ سمِع أنينَها؟ جال الحالِمُ بناظِريه في الأمكنة ومَراتعِ الصبا، علَّ الذاكرة تتزود بما يُعينُه على الغربة وقسوتها، ولم يعبأ كثيراً بإحساس الفَقْد الذي طَفِقَ يتناسلُ خِلسةً بين ضلوعِه.

غادر الفتى يُمَنِّي نفسَه بفراشاتِ الحظِّ والحُظْوة تحطُّ على كتفيه، سافر بعيداً؛ يهادِنُ نفسَه كي لا تُشَيّد داخله قلاعاً من الحزن والوَحشة

والغُربة، تمسَّك بتلابيبِ أحلامِه حيةً تسعى بين أعضائه، مُتشبثاً بضوضاءِ العواطف الدفيئة؛ تلك التي تركها في وطنه؛ عَلَّه يحققُ حُلم العودة ثانيةً.

هُيِئ له أنه قد ألِفَ البِعاد وأتقن الوقوف على أوجاعِه بكبرياءٍ، بَيْدَ أنَّ عثراتِ الخُطى في الغربةِ تتراكم -هكذا شاءت أقداره- وإذ بالخيبات لا تجر وراءها إلا خَيباتٍ أكثر سَخاءً وقُرباً، خاصة من الكفيل الذي يستعبده دون رحمة فتُوزِعُهُ نفْسُه: «أنْ ألقِ بنفسك في اليَمِّ؛ علَّه يُحسِن صَيدَك، ويشدُّكَ بعيداً بعيداً.. فتعودُ لقومك غَير آسِفٍ، فبقاؤك يا ولدي مرهونٌ بـكفيلٍ غيرِ رحيمٍ، سيُجَرِّعُكَ ثُمالةَ كأسِ الفراقِ حتى مُنتَهاكَ».

ينهض الفتى العَليل؛ يطَوِّقُ شِراعَ قلبَه بالأماني الغوالي، يُجرِّد نفسَه من أرْديتِهِ؛ آمِلاً أن يتجرد بدَورهِ من أحزانه الثاوية بقلبهِ الواجِف.. يُلقي بجسده المُرتعِد في غياباتِ متلاطماتِ الأمواج؛ حتى يبلغ التعب مبْلَغه، فيظن نفسَه من الهالكين لاريب، لكنَّ بوارقَ عطْفِ السماء تلوحُ بالأُفُق؛ حين تُسَرّ عيناهُ بنصاعةِ وبهاءِ لون رمالِ الوطن، فتشهق روحه شهقةَ الفرح، فهاهو يرسو أخيراً على شاطئ جزيرة تيران؛ وهاهو الوطن أخيراً يحنو عليه بعد طول قسوةٍ وإيلام؛ علَّ الرمال تعتذرُ له بقدرِ تَوقِهِ لها.

في غمْرَة نشوةِ الفرحِ؛ يلهثُ عطشاً، يتذكر ما حمله مما خفَّ وزنه ولم يَغل ثمنُه، يتصل بالأهل يطمئنهم؛ لكنه لم يلبث صارخاً: «أموت عطشا».. يشدُّ الفتى أزْرَه، تُمَنِّيه نفسُه بالنجاةِ، تحثُّه على التَّمسك

بالأمل، وكي لا يهلك؛ لم يكن أمام المسكين بُدٌّ إلا التصديق، فيرتدي حُلَّة الغوص.. فـ «شَرْم الشيخ» بسيناء المقدسة هى الأمل والمأوى المُرتَجى؛ ليطمئن قلبُ الفتى على سلامة الوصول لحضن الوطن.

لكنَّ الأيام والشهور العِجاف تَمُرُّ؛ ولاشيء يَشِي بوصول الملهوفِ المَكدودِ المَكدورِ لمَرْفأ السلامة، تنتظرُ الأم ابنها لكن القلب المفطور يعلم أن وليدها مُعَدٌّ للموت سَلفاً، أما الوطن.. فلا يُعِيرُه التفاتاً، ولا يَعبأُ بالبحث عنه، بل ولا يعنيه عَودَته تماماً كما لم يهتم بغربتِهِ؛ فكثيرون غيرُه ضاعوا وغَدَوا هباءً منثوراً، وآخرون ينتظرون...

فلما أَعْثَرْنا عليه رَبُه؛ إذ به يحورُ كشجرةٍ صفصافٍ تعرَّت مِنْ أوراقها، لكنها عرَّت معها قلوباً ووجوهاً ونفوساً خَرِبَة أَلْقَتْ على ذواتها الحقيرة أقنعة الوطنية والإنسانية بُهتاناً وزُوراً.. صِرْتَ يا ولدي عظاماً نَخِرَة؛ تركتَ بِضْع مئاتٍ من الريالات ـحَصاد غربتك وثمناً لقيمتك المُهانة في وطنك وخارجه- لتذروها الرياحُ، وصورةَ زوجة وطفل ينتظران مَنْ لن يعودَ إليهما أبدا.. و»هَوِيّةً « مُدَوَّنٌ بها.. المُواطِنُ»مِصْريٌ».

❀❀❀

رائحة العَفَن

أعانَه على ظُلمِه؛ يسبِّحُ بحمدِه ويقدسُ له أطراف النهار، يراودُ نفسَه ويلعنها آناء الليل حتى نبذَه أهلوه،

جاءوا مِن أقصى المدينة يسعون؛ فوجدوه رَميماً . . . فتنادوا مُصْبحين عمَّن يخْلفه؛ تقدم أهلوه يتَمطُّون فَكِهين رغم عَفَن الرائحة.

قلْبُ العُصفور

تضربُ لنفسها موعدا -لا تُخْلفه كل يوم- مع مُفكرتها؛ لئلا تفقد روحها، وبقلم مِطواع يُخضِع قلب الورق الأبيض لرغبتها وسطوتها حانيا راضيا مُستأنسا مُنسجما ومُنصتا لأتون شتات أفكارها ونثرات حروفها وشذرات نفسها ومعارج روحها؛ لتلقي بكلمات ليست كالكلمات ولا تبالي، هاذِيةً مرة؛ مُتعقلة أحيانا؛ لاهثة مبهورة الأنفاس مراتٍ ومرات؛ تبغي أن تلْقِي بحملٍ ناءتْ بها دروب النفس، وليبوح القلمُ بما يبوح، تعاهد نفسها ألا تقرأ ما ستكتبه اتقاءً لتعرية الروح، ولأن فعل الكتابة عندها ترجمة لما يشغلها ويئِنّها ساعة تجد نفسها تتواثب فيها كائنات وخلجات وأحاسيس قلِقة، لا يشغلها مايود الناس قراءته أو سماعه؛ فتلك هي لحظتها الخاصة حين تطلق خباياها وماتُكنّه.

تمارسُ التنزه في دفترها كي تهدأ نفسا وتقر عينا، لتجابه وحشة نفسها وخيالاتها، بعد أن نزل الألم يتسكع في الحنايا؛ ليشتد ظمؤها للراحة من معاناة أوجاع مُمضّة، فارتأتْ أن تلوذ بوحدتها ولتحتبس روحها في ثنايا صمتٍ شغوف؛ صمت أيام وسنين أوهمتها أنها تحيا؛ وحين لاذت بالقلم إذا بالصمت يتمزق، وينكشف سرَّها وما أخفي ليفصحَ وعْيها هاتفا: «ريثما يكون الحب تكون الحرية»، فحين نمنح ذواتنا

كلية للآخرينٍ نكون أحرارا؛ لأننا نمارس المنح والعطاء باختيارنا لا مجبورين ولا مقسورين، مازالتْ تدرك أن الحُب -وخلال فترة يسيرة- قادرٌ على أن يغير الأشياء والحياة وكل ماحولنا لتصطبغ بلون البهجة؛ يفعل فعلته الجميلة هذه؛ واثِقا من تفوقه على قُدرة السنين والحكمة المُتعقلة على التغيير، تؤمنُ أن الحُب فَزعة الأمل، ووثبة لمقاومة عجز التفاؤل، وومضة تتلقفها الحياة لتزدانَ وتُشرِق وتزدهي.

أحبَّتْ؛ وطفقتْ تعطي دون أن تنتظر ثمناً، وكيف ولمَ تنتظر؟! وهل هناك مايُضاهي متعة العطاء في ذاته؟ فالعطاء بلذته هو الفعل الإنساني الحقيقي الذي تعتاش وتغتذي منه البَسيطة التي يحيا عليها البشر أو هكذا يجب، لكنها لم تنتبه لنوعٍ من الناس حين يعتاد على الأخذ؛ يعتبرالعطاء فرْض عَينٍ على صاحبه؛ يُلام حين يقصر أو يتهاون أو تفتر عزيمته؛ بل يسعى لامتلاك صاحبه طمعا في حصاد الثمر الوفير؛ وبعد أن يتملكه يلقي عليه بأصْفاده وقيوده وأغلاله لا بمحبته ووده؛ بل ولا يبادله عطاءً بعطاء؛ آنئذ تتساءل النَّفْس المِعطاءة أحقا تمارس حياتها ووجودها بحريةٍ أم تتظاهر بأنها تحيا؟ يمر الوقت؛ تتعثر نفسها في إيجاد جواب يبلسم سؤالها المضني، ينضب معينها؛ يفتر حماسها؛ تفقد بهاءها ساعة تدرك أن من ينتظر منها الحب والعطاء دوما أبى أن يقاسمها هموم الروح وأتراح النفس، فأدركتْ أن الدهر لم ينصفها، تُراه الدهر لم ينصفها أم هي من ظلمت نفسها بنفسها؟!.

لم تنتبه في ظل سعيها الدؤوب عن النصف الآخر أن تتسلح بالكنز الحقيقي، كنز القلب الذي يحوي حُبا حقيقيا يدفع الطرفين للأمام لا

طرفاً دون الآخر، حُبا تكتمل به روحها، حُبا يدرك أن كل يوم جديد يأتي هو دعوة إلهية كي نحياه لا أن نغادر هذا العالم، ترنيمةَ عشقٍ تأبى إلا أن تتلمس الجَمال في كل ماحولنا وتتناغم معه، لأنه حين نفوز بمن هو قادر على الحُب والعطاء ويستطيعه؛ حذارِ أن نلقف روحه وعقله وقلبه وإرادته مستحوذين عليها؛كما يفعل البعض؛ يدَّعون بذلك رغبتهم الفوز بالحب كله، فيصبحون كمن فُتنوا ببلبلٍ مُترَنم في رحابة الفضاء؛ فحبسوه في قفص مُزدان، فإذ به يفقدُ بهاءه ورَونقه وألقه، ولو تركوه يسبَح مُحلِقا هائِما يغدو ويروح حرا طليقا؛ لكسبوا وده ولتواصل مدده، فامتلاكهم للطائر يفقدهم الاهتمام به؛ ولذة انتظار تغريده، ويسمحُ للألم السادِر في غيه أن يملأ دروب قلب العصفور الصغير بخلايا حزن.. لتبدأ روحه فناءً بدداً.

تُنعِم التفكير طويلا، تقرر ان تُنقذ ماتبقَّى من عُمرها، وأن تكسر القيود السارقة لطاقاتها والتي افقدتها حماسها للحياة، تصمم على خلع ثوب اليأس الذي ارتدته روحها مُرغمة، تقرر الرحيل إلى أرض خصبة اخرى يُثمر فيها العطاء، مُدركة أن العجز الحقيقي في المشاعر وليس في البدن، حين نفشل في تقاسم رغيف الألفة ونقبع في حجرات الفقدان الأليم الباذخة البرودة، تُعيد ترتيب شعرها المُتناثر، تضع بعضاً من مساحيق التجميل فيبدو وجهها برَّاقا، تنثر على وجنتيها قليلا من العطر فتزداد توهجا، يتغلغل الأمل في جنباتها، يندفق نهر الحياة في قلبها فتنهض روحها نخيلا، تفتح نوافذ الأمل والتفاؤل، ترفض أن ترعى أحزانها؛ فقد تاقتْ نفسها للفرح، تتمرد على هول صبرها وتقرر أن تتمرد على مَن قهرها... فآخِر الدواء الكَيّ.

زَهرة

عاش يتهجى أحْرف نفسِه بتؤدة، شقَّ الخريف –عاصفاً– هَدأة ليلِه، التقط زهرةً في نضرة الصِّبا تقاتلُ السقوط، أبصرَ روحه مُرصَّعة بقطرات الندى، اعترش الشوق قلبَه. . . أخذَ يغَني مُنتظراً هطول الشتاء بلهفة.

❀❀❀

يومٌ أخيرٌ لنا

إذا كان الكلام محاولة لملامسة الروح، فإن هناك أسلحة أشد فَتكا، بنفس الطريقة التي كانت ملامسة الجسد فيها مرتبة دنيا من الوصول للمشاعر والأحاسيس؛ في حين احتلت ملامسة الهواء المحيط به أرقى الدرجات وذلك في مشهد من مشاهد رواية (11 دقيقة لباولو كويلو)؛ ثبتَ لي أن الواقع كثيرا ما يتجاوز الخيال، ويحوله إلى مجرد تابع يؤمر فيُطاع؛ سادتني حالة من الصفاء؛ لدرجة دفعتني للتساؤل، هل كانت ألسنتنا عائقا؟ لمحتُ الحالة نفسها على وجهه، هل كانت فرصة لكي يتأمل كلانا الآخر بلا صخب؟ بصمتنا شعرتُ كأن العالم أصبح خلوا علينا، أخذ يجتازني وأجتازه كأننا كائنان من هواء شفيف، كنت أعرف أن لقاءنا قد يكون لقاءً أخيرا، لكنه بعد انتهائه أصبح لدي يقين بأننا ندخل بداية جديدة تماما، عصْر ما بعد المشاعر والأحاسيس المعتادة.

لا أدري كيف كان وقع لقائنا عليه، حيث اخترنا أن نصمت، من جانبي كنت أخشى البوح فيما بعد، ليس له فقط، بل حتى لنفسي، يوجا جديدة في الاقتراب؛ تفتح عالماً ربما يكون لانهائيا، في ذلك اليوم كنا على السراط الفاصل بين التعاسة والسعادة، بين اللقاء والفراق، على الحد بين الذات المحسوسة والأخرى الهائمة في مناطق لا سيطرة لنا عليها، ربما

وصل بنا التعب إلى مَداه.. فنقلَنا دون أن ندري إلى درجة من الإحساس بصفاء ذهني يطلق عليها لاعبو التنس «المنطقة»، حيث يتوحد مضرب اللاعب مع الكُرة، ويتبعها ليردها مهما كانت صعوبتها، ويبلغ الجسد رشاقة تبدو بلا حدود، إذ يصبح عبدا لقدرات صاحبه الكامنة..

مشاغل ما بعد اللقاء الذي تراوح بين فرح الولادة وتعاسة الموت، كانت تحاول تبديد إحساسي باللحظة، لكنها لم تفلح، في أغلب الأوقات خيم إحساس من يستلقي فوق الماء آملا في نسيان الدنيا وفتح عينيه باتجاه السماء وحدها، كان بودي أن يتحدث كثيرا، يقرأ شعرا، يغني، يغازلني.. غير أنه لم يفعل، تمنيت ألو سِرنا تحت المطر، أو تسابقنا كصبيين على شاطيء رملي، أو جذبني بكامل ملابسي إلى الماء لنتضاحك ونلهو.. لم يكن بمقدرونا فعل شيء من ذلك كله، فقد سيطر عليه شعور من يتعبد في محراب، ولم يشأ أن يكسر حالة الرهبة هذه، كما لم أحاول أنا طلب شيء؛ وكأني أستسلم لما يرغب، كان الصمت مثل غضب الكريم، بعنفوانه وجبروته في الاقتراب، كان مِهادا خياليا لروح أتعبها صعود منحدرات الجبال؛ بحثا عن السعادة التي لم يحن إدراكها بعد.

هل كنت سعيدة بذلك اللقاء غير المسبوق إلا في الروايات؟ حقا لا أعرف، فالسعادة طبقات بعضها فوق بعض، كلما أدرك الإنسان الأعلى منها يسأل نفسه كيف سعدت بما كان أقل، التعاسة أيضا كذلك، ما أدركه أننا كنا مثل مُهرين نهرول معا نحو شيء ما لانعرفه، وربما عرفناه ولم ندرك.

الرَّكْعَةُ الأخيرة

وقف على شاطئ البحر؛ يشم رائحة لم يألفها من قبل، حتى الأمواج خالها غير تلك التي تحتضنه كلما هفا إليها، لم يتعجب من هذا الشعور الذي داهمه؛ فلأول مرة تطأ قدماه هذه البلدة الباردة الأحاسيس، بعد أن دمرتْ الحروب المفتعلة بغداد، فهرب لسوريا يلتمس مَأمنا لأسرته؛ فإذ بالدائرة تدور على دمشق؛ فيُولي أهلوها جميعهم الأدبار؛ فتنحسرُ أثواب الأمن والأمان، وتكف الطيور عن الغناء، إعلاناً بهروب العشق والشجن من البساتين والشوارع، يعتصره الألم في انتظار قادمات الأيام؛ بعد أن جرَّب فواجعها، تنهال حبات دموع راعفة لتُلقي بغشاوة على عيون تهتصرها قشعريرة الوجع.

تلاطمه الأفكار وتصفعه مُدمدمة: ما أبشع الرحيل عن وطن يُلقي بك في قارب مطاطي يتلقفك بين فكيه الأسودين؛ ليحملك في ركْب رحلات الموت، فيغدو البحر مِن أمامك وخلفك؛ وعن يمينك وشمالك وتحتك؛ والموت إما غرقاً أو كَمداً أو فزعاً، أو برصاصة مجهولة معلومة من عصابات تنتظرك؛ لتتاجر بأعضاء العربي والعربي وحده، فتنحر رقبة عربي، وتقطع يد عربي، وتجز قدم عربي، وتهتك سِتْر امرأة عربية، فتنهش صدر امرأة عربية، وتبقر بطن امرأة عربية،

وتعيث في أحشاء امرأة عربية، وتلوك شرف امرأة عربية، ويشتري أعضاء الجسد العربي مَن كان سبباً في إشعال النيران في بلدان العربي.

تمرُّ على ذاكرته مشاهد أهله وبَني جلدته الذين ألقوا بأنفسهم في مياه البحر طلبا للفرار؛ فمن نجا منهم التقمته أسواق النّخاسة والنّجاسة والشحاذة والنذالة، لتأكل المراة العربية بثدييها؛ إذ لم تعد حرّة، ومن حالفه الحظ سيق كعِمالة في السوق السوداء لرخص يدِه وشرفِه ووطنِه، فأي جهة رسمية من بلده معنية بأن تسأل عنه، أو تجلب له حقا، أو تساوي بينه وبين الجنسيات الأخرى؟ من يخبر العالم أنه هو العربي نفسه صانع الحضارة وحامل مِشعل التنوير بأديانه التي احتضنتها أوطانه؟ فُرّغَت منه الأوطان لتبقى للحكومات العميلة وأصحاب النعرات والمذاهب وأرباب المِحن والإِحن، ليقضوا على إسلامٍ سَوَّى بين العربي والأعجمي والأسود والأبيض والأحمر، إسلامٍ علّمه أن المرء ليس بحسبه ونسبه؛ بل بعمله وفعله، يبغون تمايزاً عرقياً ومذهبياً؛ ليصبح الوطن دويلات مُستضعفة؛ شيعية وسنية، كردية وأمازيجية، مسيحية سودانية ونوبية، ليتعاظم التفتتيت، وتذهب رياح وحدة جمعتنا يوما تاريخا ودينا ولغة.

يستفيقُ من أفكاره على أزيز طائرة تحلق على ارتفاع قريب منه؛ فالمنطقة التي يسكنها قريبة من أحد المطارات المحلية، يتذكر كيف يغطي طيران فرنسا سماء سوريا؛ ليطمئن على سير عمليات التهجير

كيفما يود الأعداء؛ وليدمروا ماتبقى من بلد الحضارة؛ وهم يبحثون عن «دواعشهم»؛ تلك التي بذروها في أراضينا؛ ثم بحركة تمثيلية تنتفض أوروبا العجوز لاستقبال ثلاثة ملايين من الفارين العرب لتحل مشكلتها هي، فهي تعاني نقصا مزمنا في اليد العاملة؛ إذ تشير التقارير إلى أن ألمانيا وحدها ستفقد ستة ملايين نسمة بحلول العام ألفين وثلاثين؛ لأن عدد الوفيات لديها يفوق المواليد، ونسبة الكبار في سن الشيخوخة تفوق الشباب، كما تعاني الأسواق الأوربية من قلة الاستهلاك مقابل الوفرة الإنتاجية التي تعيشها.

ينظر بحزنٍ لأمواج البحر المتلاطمة؛ وهي تقد الشاطئ الرملي بعنف وشراسة؛ ثم تعود لسيرتها الأولى، تماما كما انقضت أوروبا على العربي الشريف السامي الأصل لتمارس مَزيدا من الإذلال لجنسه ودمه ودينه؛ نتيجة كراهية وحقد دفين في أعماق صدورهم مذ قرون لا يبغون عنه تحويلا، يُسائل نفسه مُتجرعا الحسرة: ماذا بعد اللجوء لبلادٍ تعاني ثقافة الخوف منكَ؛ حين يطلقون عليك عبارات ومسميات أكثرها تهذيباً أنكَ وجنسكَ «أناس مقلقون»؛ ماذا بعد امتهان أحقر المهن وكرامة ذليلة ليل نهار؟ حتى بعد أن نِلتَ الجنسية الأوربية يحتقرونك؛ لأن وطنك احتقرك من قبل، وحُكّامك احتقروك من قبل، فليس لك نصيب من الكرامة، حاول إذن أن تعتاد ذلك؛ وانظر للأتراك الذين يعيشون هنا مذ عقود طويلة كيف يُنظر إليهم بدونية رغم البعد بين مستوى بلدك الاقتصادي والسياسي والإنساني وتركيا بُعد المشرقين.

ينساب دمْعه دون حذرٍ او خجلٍ؛ يتذكر بناته الثلاث؛ كيف سيحافظن على إسلامهن؟ ستخلع إحداهن حجابها وتُصادق شاباً على غير دينها وربما تتزوجه؟ هل ألومها أم ألوم من نزع حجابها في وطنها وكشف سترها وباعها في سوق النخاسة هازئا بعِرضها وشرفها؟ أم ألوم دولا عربية أخرى تُفضّل الهندوس وعُبّاد البقر والبوذيين على العمالة العربية المسلمة؟ أو لم تعايرنا ميركل المستشارة الألمانية حين قالت هازئة أن اللاجئين العرب هربوا من برود حرارة دول البترول يلتمسون الدفء وسط زمهرير أوروبا؟!

يتملكه اليأس، يحارُ كيف سيقضي بقية عمره قابِضا على أحزانه، يصرخ في صمت، يبكي عُمرَه وأهله واصدقاءه وأحلامه، يعرجُ في عودته على مسجد صغير، يخلع نعليه، يتوضأ متمتماً بأدعية تصاحبه في لحظات همّه وغمّه، يرفع يده بتكبيرة إحرام، يتهجَّد صَبْرُه ركعتَه الأخيرة.

الحياة رَجُل؟!

اهتزتْ وربتْ؛ فكانتْ زهرة يانعة؛ تفتحتْ وتبدَّتْ، كثُر خُطَّابُها وطلبوا ودِّها، فأبتْ إلا أن تهتدي بنور قلبِها؛ موقنة أن الحياة دون حُب عبء ثقيل، وأن العشق ماؤها؛ فتركتْ خفقاتها ترق لمن مارستْ عيناه سطوها المستبد على روحها فأخضعها له، فانتشت وتألقت وفضلته على رجال العالمين؛ ورضيت أن يبحرا معا في سفين حياتهما، تسبح في فضاء خيال يصور لها أجمل أمسيات وردية سيقضيانها معا، فعشقت ذاتها وقَدَرها، وطواعية دارت في فلك اهتماماته وتطلعاته؛ تؤازر وتساند وتُعلي من همته وحماسه. أتاها يوماً من خلفها مبشرا بورقه الممهور؛ بأن الارتحال والغربة قدر مقدور، فطمأنته: «ريثما أكون معك فلا غربة، فأنت الأهل والصاحب والولد والانتماء والوطن والسند، وأنا امرأة تجيد البقاء والاحتمال»، طوقها بذراعيه؛ قبّلت يده معلنة أن قلبها مَسكنه، وامتلاك الأحلام مهمتهما معا.

غادرا وكافحا وتبرعم في عشهما ثلاث وردات رائعات، بددتْ عتمة الغربة، وكسرتْ أصفاد الحنين الموجع للأهل والوطن، وازدانت الليالي وامتلأ فضاؤها ببراءة البسمات والضحكات الطفولية العذبة،

والتمعت الأحلام ليرسما معا مستقبل الأبناء، فأراد الحنّان المنّان -الذي لا رادَّ لقضائه- إلا أن يتوج فرحتهما بمقعد صِدق عند المليك المقتدر، فادَّخر لهما عظيم مفاجآته، واسترد وديعتين من ثلاثتيهما؛ ليصهر رب العزة ذو الحكمة الوالدين بنار الألم والفراق لفلذتي كبديهما، حتى يغسل قلبيهما وينقيهما، كما يُنقى الثوب الأبيض من الدَّنس، وكما الماس ساعة يُختبر بالنار فيزداد بريقا وصلادة، ران الحزن وألقى بردائه على عشهما يتصبران بطلفهما الثالث؛ ابنتهما «سَنا»؛ كونِهما وبريقِ حياتهما المُتبقي، وأسلما أمرهما لله؛ ينتظران يوم تَبْيّضُ وجوه؛ فيأتياهما ولداهما الملكان يقودانهما للجنة زُمرا، ولأن العَين تدمع والقلب يحزن على فراق الأحبة؛ داهمتهما خيول الأنين، وتشققتْ التربة تشتهي قطرات رواء من الثلج والماء والبرد؛ تَربتُ على كنوز الحزن الدفينة، وتهدئ من صرخات ملتاعة محشورة في صدور ملتهبة وأفواه مكممة بأنين صامت وبكاء دون دمع مُراق.

التفتت الأم الحانية لعصفورها الوحيد -ذِكْرِ رحمة ربها- ونادت ربَّها نداءً خفياً: رب لم يهن العظم مني، ولم يشتعل الرأس شيبا، ولم أكن بدعائك ربي شقية، فهب لي من لدنك وليا، وتولَّتْ تُعيد تلوين كابوس أيامها بريشة ألوان قوس قزح، تمحو قسوتها، وتهيئ نفسها لهدايا السماء.. ولم تمض عدة أشهر على مُصاب صديقتي الجلل؛ إلا وتملكتني رغبة عارمة في الاتصال بها وكان ترتيباً قدرياً عجباً؛ فجاءني

صوتها يزفُّ إليّ خبر زواج زوجها اليوم (!) توقفتْ مسامعي واضطربتْ خفقاتي؛ وعُدتُ أسألها: زوجك مَنْ؟! قالت: زوجي فلان؛ فليلةُ بنائِه اليوم! «يا إلهي.. أتمزحينَ حبيبتي؟! ثم لماذا؟ فمازلتما صغيرين وفي سن الإنجاب. أوَ تملكينَ كل هذا الإيمان وكل هذا الثبات؟ اللهم ارزقني ثباتاً ويقيناً مثلك»، انهارتْ باكية وصوتُ نحيبها يعلو: «لو كنتُ ذات إيمانٍ راسخ لما بكيتُ، ولمَّا غزا الحزنُ قلبي، أكادُ أجَن حين أتخيله في حضن امرأة غيري، وحين يـ... « ينقطع صوتها فجأة؛ أحسستُ بدموعها تغرقني بطوفانها مِن سماعة الهاتف.

أيا رجُلاً عشتَ أحلامها، وطرَّزتَ سماءها، وغادرتَ؛ فلم تترك لها إلا الوجع والقناديل المُطفأة الملتهبة، يا من رميتها بكلمات الوداع فلم تُجبْكَ إلا بنظرةٍ حَوَت كلماتها ومشاعر سِنِيِّها، يامن زرعت حنايا الروح بخلايا حزنٍ خِلتها نائمة؛ فإذاهي ستُفني روح صديقتي بددا، أوَ تبكينه يا صغيرتي؟! مثله لا يستحق دمعَك، وهل الحياة مجرد رجل؟! قصتك يا حبيبتي ليست إلا قصة عشق خائبة «أخرى»، بيدكِ تخطين غيرها إن أردتِ، وبيدكِ تولِّين كل شغاف قلبك لعصفورك الصغير الذي ينتظر رعايتكِ ليكون سندكِ وقت تحتاجين، وسيملأ داركِ بذرية تثلج قلبكِ وتُذهب لَوعته، كفاكِ –صديقتي- مُغالبة دمع عَين روحك، وتقياً لأنينٍ غير منته، هو الخاسر لا أنتِ، حين كنت تربتين على قلبه وأنت من تحتاجين لأن يربت هو على قلبك، حين كنت تفعلين ذلك

أَبَى إلا أن يغمدَ النَّصل حتى آخره؛ ليوئد بقية أحلامكِ، وبيده الأخرى يمدها لغيرك يكملُ معها بقية أيامه، لا تبكي ولا تعاقبي نفسك بقتلها حزناً؛ فعلى مثله لا نبكي، ولا نُهرق الدمع النبيل، فلا يستحق دمعنا من لم يترك لنا سوى مُر المشاعر ووجع الحنين.

توَاءمي يا «غاليتي وتوأم روحي» مع حياتك الجديدة، فأنت تعيشين الآن الخَلاص من مرافقة قساة القلوب والمشاعر، ستظلين شَمعة لياليه الحزينة، وتبقين السَّكينة إذا ماابتغى الهدوء والطمأنينة، وحين تتقاذفكِ أمواج الأحزان فتصلين لقمة يأسك؛ لحظتها انتظري وترقبي مُلاطفة الأقدار لك، لتسبغ عليك كرم عطفها وحنانها؛ وقت تنهمر عليك عطايا السماء تترى، انتظري؛ أليس الصُّبح بقريب؟ تستمع صديقتي لنصائحي؛ تنوى أن تبدأ حياتها من جديد غير نادمة على مافاتها، وتُصرُّ أن تواجه مصاعب الدنيا بقوة وثبات.

تمر الأيام، لتكشفَ للزوج سوء اختياره، شتّان مابين المرأتين، الأولى صبرتْ واحتملتْ وتغرَّبت معه وتحملتْ آلام فقْد ابنيها، والثانية ماتزال صغيرة لاهية؛ فارق السن بينهما يُلقي بِرِداء المشاكل وسوء الفهم، ينفردُ بنفسه، يتذكرُ زوجته الأولى وقدرتها على فَهمه؛ شعرَ بحنينٍ جارف لها، الأن يدركُ خطأه، يقرر أن يعودَ نادماً، يعلم مقدرتها الفائقة على التسامح، لم يدْر إلا ويده تدقُ باب بيتها، تفتحُ له، يمدُّ ذراعيه ليضمها مُعتذرا، يُلقي على مسامعها عبارات الندم والتوبة، يُمطرها بكلمات الحنين؛ وكيف ظلتْ روحه مُعلقة بها، وأنه لايجد

نفسَه إلا معها، ولا تسكنُ روحه إلا جوارها، يترجّاها، يَهِم بالدخول ليغلقَ الباب خلفه، واثقاً من تأثير كلماته عليها، فلم يَكن يُكلف نفسه كثيرا عناء الاعتذار لأنه يعلمُ حنوها ورقتها بل وعشقها له؛ مما يجعلها تغفرُ أخطاءه بمجرد كلمة اعتذار بسيطة منه.

بثباتٍ ترمقهُ صامتة، يبتسم لها، يعلم أنها تحبه وسرعان ماستصفح عنه؛ هكذا عوّدته مذ تزوجها، لكن انتظاره يطول، واللحظات تمرُّ كدهرٍ؛ وهي ماتزال على ثباتها؛ لم تسمح له بالدخول، ظنَّ أن بضع كلمات ستُعيد مافات، اقتربَ منها يهِمُّ باحتضانها وإغراقها بقبلاته المشتاقة، ترفعُ يدها حاجزا بينهما، تشير لبطنها الذي تكوّرَ بشكل واضح، ترجف أعضاؤه غير مُصدق؛ كيف لم ينتبه إلى أنها قد تزوجت؛ فقد مرَّت الشهور دون أن يسأل عنها، وكأنه يوقنُ أنها لن ترتبط بغيره، ودَّ لو سألها لمَ تسرَّعتِ حبيبتي؛ ولكن هل يملك حق العتاب أو اللوم؟

أدارتْ له ظهرها؛ يسمعها تعتذرُ له، ينسحبُ والحزن يكسوه، تُغلق خلفه الباب قبل أن يرى دموعها تنساب على وجنتيها؛ أويسمع نحيبها، تضع يدها على بطنها تنتظر وليدها القادم، ليملأ فراغ الحزن الذي تعيشه، أحست بنوع من التشفي حين أخفت عنه أن ولده يقبع ي رحمها منتظرا موعد الخروج، فبقدر عمق جراحها، بقدر مايجب أن تُعاقبه، فكيف تقوى على النسيان؟! فتحت نافذة غرفتها على مصراعيها؛ تركتْ الهواء يداعبُ ستائرها، تنفستْ بعمق، شعرتْ براحة كبيرة تسْري في أوصالهأ، أغمضتْ عينيها بارتياحٍ بالغ.

هروب

حين تدق أجراسُ العشق، وتعلو مآذن الهوى لتتعانق رُوحانا؛ أوقنُ أنك تلقنِّي الدَّرس بأنه لا شفاء منكَ،

فأعاودُ الهرب خائفةً؛ مُعلنةً أنِّي قد تركتُ مقاعِد الدراسة مُذ أمَد.

زمن الحزن إلى بيروت

للحُب والجَمال؛ للرومانسية وقطرات النَّدى؛ للأنوثة والدلال تَهيأتُ، للنوارس والبجع؛ للؤلؤة البحر؛ لـ «سِتّ الدنيا»؛ لزخّات مطرٍ تفترش الغابات والأنهار والوديان؛ حزمتُ حقائبي، وأسكنتُ خيالي مِيناء العشق، وتركتُ روحي تسبح صَوب مغارة أحلى الملكات؛ لتهامسَ رِقة الحوريات، إلى بيروت قررتُ السفر؛ إلى عاشقة الحياة والسهر؛ إلى بلد كل مافيها يشي بالاشتهاء؛ إلى الوردة الجورية التي تُصر على الحياة ببهاء مهما ناوشها الفناء.

وسْط لوحة طبيعية بديعة حطَّت بي الطائرة؛ البحر عن يميني، والجبل السامِق عن شمالي يحتضنُ ضيعاته، وفردوس أخضر تحتي يشتهي وَطء أقدامي؛ وشعاع شمس المَغيب يشاكسُ عيني بلا خجل؛ أتحسسُ وجهي فيعجبني وهجي.. يتلقاني «عليّ» بلهجته اللبنانية المحببة: «سِت حورية ناطرتك أنا هون من شي ساعة»؛ أبتسم غير عابئة بالرد؛ مشغولة أنا بوسامته الأوربية اللافتة؛ أسأله فيجيبني أن أمه من أوكرانيا. يتيقظ حسي الصحفي ويطل برأسه داخلي: وماذا عن اللبنانية؟ يجيبني: «بدَّها مصاري كتير، والحالة الاقتصادية هون وأعة». اتنبه وأنهي الحوار على عَجل؛ أذكِّر نفسي أني قد جئتُ أقضي بضعة أيام بعيداً عن الهموم والأحزان.

أُعاود الغَوص في حلمي الجميل لأكللَ أول ليلة لي ببهاء بيروت، أتلفتُ حولي في شوارع المدينة العتيقة فيَلفتني أناقة نسائها، ونظافة شوارعها، ويأبى عقلي إلا أن يعاود فِعلته فأناديه: «عليّ.. أين الناس والزحام؟ أين أكوام القمامة التي فَجّرت الأحداث ببلدكم الجميل مؤخراً؟ أين ذهبتْ أضواء شارع الحمراء حتى صار مُظلماً باهتاً هكذا؟ «يبتسم السائق ساخراً: «سترينها حالا»، نصف ساعة تمُرُّ حتى رأيتَ كَومة صغيرة؛ صرخ السائق مُشيراً بيده: «هووووون»، وجهتُ وجهي للنافذة؛ أخفي ابتسامة ساخرة ندّت عني؛ وأنا أتذكرُ قمامة القاهرة؛ يكْمِل عليّ: «أما عن الزحام والناس وأضواء الحمراء؛ فالحالة الاقتصادية مُتردية؛ يكفي أن تعلمي أن الدولار الواحد يعادل ألف وخمسمئة ليرة لبنانية.. العُمْلة وأعة وأعة».

يُصرُّ»عليّ» أن يضع وجهي مباشرة أمام جدار الحزن العربي فيُكملُ: «لبنان ضحية العملاء والخونة والمأجورين والرشاوي والعمولات وتجارة المخدرات؛ كل من حكمَه يساهم بجدارة في إشعال فتيل الفتنة الطائفية، طوال عمرنا وعمر آبائنا وأجدادنا لم نسمع كلمة سُنّي وشيعي ودرزي ويهودي؛ كلنا جيران وأصحاب، أنا مثلاً شيعي وزوجتي سنية، وأمي شيعية وأبي سني، كل حاكم لبناني بدُّه يهدم لبنان؛ فليرحلوا عنا ولن نبكيهم أبدا؛ وسيعيش لبنان بكافة طوائفه كما عاش من قبل». أشاكِسه بسؤالي: ومن هو الزعيم الذي أخْلصَ

لبلدكم؟ يُجيبني من فوره: «جمال عبد الناصر؛ وماتزال صوَرِه مُعلقة على جدران الآباء والأجداد».

أقضي أول ليلية بلبنان لأكتشف أن شعبه يعشق الحياة؛ يروضُ أحزانه؛ الشراسة سَمته؛ يحارب ويقاتل نهاراً بشراسة ويمرح ويحب ويرقص ويسهر ليله ويمارس عشقه لذاته أيضا بشراسة، اللبناني «يدايّن من شان يزايّن» مثل شعبي؛ يعني أنه قد يقترض مالاً من أجل أن يمارس بهجة حياته ليلا؛ ويقيني أنه لولا عشقهم للحياة مابقيت بلدهم رغم الحروب والفواجع التي ألمّت بهم، وهنا أتذكر نزار وهو يرثي بيروت في إحدى مصابها الجلل: «الأن عرفِنا معنى أن تقتل عصفورا في الفجر... هل كنّا نغار مِن جَمال بيروت؟».

خمسةُ أيام مُدة رحلتي لبيروت الجميلة؛ صعدتُ غابات أَرزها حيث درجة الحرارة صفر؛ ومازلنا في بداية موسم الشتاء، ومارست متعة ركوب التليفريك إلى»سيدة لبنان»، ويُقصد بها السيدة مريم العذراء وتمثالها الشهير بمنطقة حَريصا؛ والتي ترتفع عن سطح البحر بنحو ألفين وخمسمائة متراً، وإلى صخرة العشاق أو صخرة الروشة كانت الرحلة البحرية الماتِعة؛ وماكدتُ أُنهي يومي مبتهجة حتى تفاجأت بأعداد كبيرة من الشحاذين يعج بهم كورنيش بيروت؛ لبنانيين وعراقيين وفلسطينيين وسوريين لن يفلتوك أبدا قبل أن تجيب مَطلبهم؛ بعدها تمضي وأنت تنوءُ بجبال من الألم والغُصَص والهمّ العربي.

إلى» الفَرِيّا «حيث أشهر مناطق التزلج بلبنان لا أجد أحدا؛ تتسابق نحوي السيارات المخصصة لصعود الجبال؛ نصف الساعة بسبعين دولاراً؛ فجأة يقترب مني أحدهم: «أوافق على عشرة دولارات فقط»؛ أتذكر عليّ وتأكيده على تردي الأوضاع الاقتصادية واختفاء السائحين وترقب فواجع تأتي نتيجة الأوضاع المتأزمة في سوريا، رغم أن ديسمبر ويناير هما الموسم السياحي السنوي المنتظر للاحتفال بأعياد الميلاد والتزلج على الجليد.

أُكمل رحلتي لمغارة «جِعيتا»، ثم القلعة فمتحف المشاهير؛ أمُرُّ بالمطاعم؛ بالفنادق؛ بالمُولات؛ فلا أجد إلا الركود والصمت والأحزان والليل البارد يجتاح لبنان؛ تتسلل إلى روحي أغاني فيروز من كل ناحية؛ يتناهي إلى سمعي: «سألوني شو صاير في بلد العيد، مزروعة ع الداير نار وبواريد، قلت لهن بلادنا عم يخلق جديد، لبنان الحضارة والشعب العنيد».. ألمحُ صورة زعيم إحدى الطوائف المعروف بدفاعه المستميت عن الفقراء؛ أسأل سائق التاكسي فيجيبني مستهزءا بأنه فعلا زعيم الفقراء، فزوجته تملك 182 عمارة سكنية وابنه وصل رصيده في البنك إلى 4 مليار دولار فقط!!

لبنان بلد المتناقضات؛ بلد الجوع القاتل والشَّبع الفاجِر؛ بلد الأناقة والشحاذة؛ بلد المرح والرقص والبهجة وبلد الحزن والألم والفواجع.. الرحلة من أبوظبي -حيث رَكبتُ طائرتي- إلي بيروت ثلاث ساعات؛

قطعتْها الطائرة في أربع ساعات ونصف بزيادة قدرها تسعون دقيقة؛ والسبب أن المجال الجوي للعراق والأردن وسوريا وفلسطين مُغلق؛ فكان ولابد أن تمر الطائرة بالسعودية ثم مصر متجهة إلى لبنان؛ تسعون دقيقة بالطائرة اختصرت آلام ومآسي الهلال الخصيب؛ اختصرتُ أحزان تقسيم العراق وبلاد الشام على موائد اللئام؛ فكم تسعون يارب نحتاجها لنستعيد وطننا المَسلوب؟ تسعين يوماً أم تسعين شهراً أم تسعين سنة؟

أعود أدراجي إلى الفندق؛ ألملم حقائبي وهدايا اشتريتها لأولادي، أكتب في دفتر الفندق كلمة للذكرى، أُوقعها بطرف عيني الدامع.

غُربة

عادَ مشتاقاً مِن غُربته؛ ارتمى في حضنها يتلمَّسُ دفئاً افتقده مُذ زمن، فزعَ حين وجدَ وحشةً وغربةً أشَد؛ تولى عنها مُدبراً، ابيضَّت عيناه مِن الحزنِ.

مِلْءُ القلب

فلما تَلَّهُ العِشق؛ واستبدَ به الشوق؛ وانتابه الحنين، وجنَّ عليه الليل، وأَرخَى الشوقُ سُدُولَه؛ سرَتْ في أوصاله قشعريرة بردٍ ناعمة، فمَسّد قلبه المُتَّقِد، مُغْمِضاً ناظِرَيه؛ مُتَوَسِداً صَفْو أحلامه، شرعَ ينادى مَحبوبته، حتى أضاء طيفُها خواطره، ودَفَّأ مشاعره، وطَفِق يناجي مَلاحَتها، ويهامسُ رقتها وطَلاوتها، لحظتها؛ فاضتْ روحها إليه، تُؤنِسه بودِها، وتبهجه بلُطفها، فلمّا عَصفتْ به المَسّرة، واجتاحته البهجة، وشاعتْ في خلجاته روعة الفرح، وتاقتْ نفسُه لنشوة اللقيا وطِيب التَداني، شَفَّ الفجر عن طلَّتها، ترنُو إليه، ترميه بلحظٍ خَفِي، واشيةً بجمال قُرْبها، حتى أشرقتْ روحه بنور وجهها؛ وتَنَسَم عطر بهائها؛ فهرول يعانقُ ظلَّها، والقلبُ يبوح بيقينٍ تَعْلَمُهُ، قد شغفتْه حُبا، دنا يتنشَّق عبير أنفاسِها، تمتمَ مُتلهفا مُتلعْثما: ما أَمْلَحكِ، لم ابتعدتِ؟ آنَستْ عِتابه الحاني وهي تُهامسه بعبارتها المُحببة الأثيرة: كيف وأنتَ مِلءُ القلب؟! ارتجفتْ أوصَاله، واختلجتْ نظراته، واغرورقت عيناه بالنَّشوى، وندَّت عنه آهةٌ مُلتَذة، وشَرَعت عَبراته تَسْتَبِقُ على خديه جَزلى.

ترفق بهما الزمان؛ فأمضيا الوقت في أُنْسٍ وانسجام، تَبَدّت لهما الدنيا ودودة وديعة، واستحالَ القمر وَشْما زاهيا يَعْتَرِش غرامهما،

أخذتْ جوارحُه تهامِسها، وراحتْ أصابعه تُلامسها وتُلاطفها، تَمُرُّ كَفَّاه على وجهها؛ تعزفُ لحنا، فترتاح قَسَمَاتها؛ وتُشرق وجنتاها، تستبقيه بلهفة، تلفحُ جِيدها أنفاسُه اللاهبة المشتاقة، يَنْثال بريقُ عينيها، تنهالُ ابتساماتها الرائقة العذبة؛ فتنجلي هموم قلبِه بَدَدا، ويهتف فرِحا، وتنسابُ نُهور مشاعره فُراتا.

بحُنوٍ فائق يقتربُ، يَهِمَّ بها، فيطَوِقُ كَتفيها بذراعيه الحانيتين، يرفَعها لأعلى...فأعلى... فوق جِدار الذكرى، وقتئذ ينقطع تهامس الوالِهَيْنِ، يعود لِفراشِه وحيدا لائِذاً مُلتاعاً؛ ونفسُه تفيض بالأسَى والوَحشة، وعَيْن روحِه صَوْبَها لا تَحيد، والألم المُمِض يَهْتصِرُه، تُسائِله صورتها المعلقة: هل ستنساني؟ يجيبها بدَورِه: كيف؛ وأنتِ مِلْءُ القلب!

الغرفة 616

لحظات ليستْ كاللحظات، حالة من الخضوع والاستسلام، يتجمهرون حولها في صمتٍ مهيب، يلتفون في هدوء منظم، العيون تُحدق مشفقة، شفاه تتمتم هامسة، دعوات صامتة، أصوات بعيدة خافتة، الكل يرقب وجلها وخوفها، ممددة هي في فزعٍ بلا حراك، يسرعون بها بلا هوادة، توقنُ أن لكل أجل كتاب، ولكل نفسٍ سائق واحد وشهيد واحد..فلماذا إذن يكثر السائقون حولها والشهود؟! ينتبه عقلها.. نعم.. نعم.. استطاعت النطق بالشهادة، اطمأن قلبها قليلا، كلما أسرعوا بها ينفضُّ الجمع من خلفها حتى تركوها وحيدة! مازالتْ مشدودة القيد، آخرون يَقدُمون بيض الوجوه.. يمدُّون أيديهم.. يمسكون شيئا، فزعةٌ هي، تشيحُ بوجهها عنهم.. تحاول الهرب، لا فكاك مِن الوثاق، فتحت فمها لتصرخ، ألجموها شيئاً، وامتلأ صدرها حشرجة، تحدثها نفسها: كلهم يأتونه عُراة حُفاة فُراداً.

لكن عجباً وحدها تتعرى.. وحدها حافية.. وحدها مستسلمة، مايزالون يحدقون فيها، تغيبُ عن الوعي شيئاً فشيئاً، تلتقط ذاكرتها شبح عينين زرقاوين ترقبانها بإشفاقٍ، تهوي في قاع سحيق، وقبل أن يغيب وعيُها تماماً تمسكُ بتلابيب فكرة أقنعتها وأفهمتها أن الروح

تحلق لأعلى؛ إذن ما الذي تغير؟ تسيل الروح بخفة خارج جسدها وهي مسلوبة الإرادة.. تمضي عبر نفقٍ مظلمٍ نحو السقوط، تتذكرُ ما أحضرتْ وما عملتْ من خطايا وذنوب؛ فبصرها اليوم حديد، الأمر جَلل؛ أشد مما تخيلتْ، مازالت تهوي، تتلفتُ تبحثُ عمن لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها، اليوم تُبلى السرائر، ترتجفُ، تسري برودة شديدة في أوصالها، أمَاتزال الفرصة سانحة؟ الدرك الأسفل يقتربُ.. يحاول عقلها استرجاع إجابات ثلاث حفظتها عن ربها ودينها ونبيها، هل تنفعها التوبة الآن؟ تتحسرُ.. وهل تنفع توبة الغريق فرعون؟! لا.. لا.. مستحيل؛ هو ربٌ غفورٌ، كتب على نفسه الرحمة، أوصاها بشق تمرة؛ وهي لطالما تصدقت بحِمل بَعير.

تعاني من شدة ورهبة، ألم فظيع يفتك برأسها، تتسارع دقات قلبها مضطربة، تصرخ.. عجباً؛ لا يبدوا أنهم يسمعونها، منهمكون يقلبونها ذات اليمين وذات الشمال وهي باسطة ذراعيها في خضوع.. تهمسُ فزعة: هلك عني سلطانيه، لا أدر ما حسابيه، الحمد لله فلم يكن لها جاه ولا سلطان، إذن فلن يأخذوها ليغلوها في الجحيم بسلسلة قدرها سبعون ألف ذراع، تطمئنُ نفسُها قليلا.. لكن عجباً لازالت الأيدي تمتد إليها..ترتعش شفتاها.. تتشنجُ أصابعها.. تتيبسُ مفاصلها.. حشرجة صدرها تزداد.. تندفع فجأة نحو السقوط المروع، يُكشف عن ساقيها فلا تستطيع السجود، تحركُ لسانها فلا يطاوعها.. لدهشتها

تنطق يداها، وتشهد رِجلاها، ويبوح جلدها! تصرخ فيهن، تحذرهن: «عنكن كنت أناضل، هيا دافعن عني»، لا ينظرن لها ويواصلن تأدية مايؤمرن به.. استمرتْ تصرخُ فيهن: سُحقا لكُنَّ، تهبطُ بسرعة مذهلة نحو القاع السحيق.. تعاني السَّكرات، أجفانها مثقلة، أدركتْ أنها لا تملك شفاعةً ولا عدلا، قُضِي الأمر.. تنهار.. تسيل أنهار الندم.. تزداد رجفة الجسد.. وحدها في وحدة مظلمة موحشة،يتخبطُ رأسها من المَسِّ، يسرعون بلا رحمة ولا شفقة، تفقد الوعي تماما.. يسّاقط الجسد ويُلقى مهملا.. بصعوبة بالغة يلتقط سمعُها صوتاً يناوشها من بعيد معلناً: «الغرفة 616».. في لحظاتها الأخيرة تُدهش؛ تتساءل.. أللغرف أرقام؟ تفقد وعيها تماماً، ويسقط الجسد المُسجى بلا حولٍ ولا قوةٍ، تشعر بأنفاسها تصَّعد إلى السماء، ويضيقُ صدرها حرجاً.

ضرباتُ ساحقة تلطمُ وجهها، أصواتٌ وضجيجٌ يعلو، تصرخ.. تستنجد.. تستجير.. ذلك يوم الوعيد الذي كانت منه تحيدُ، الرؤوس لا تُحصى ولا تُعد..الهول كبير، والفزع عظيم، والحَدث رهيب، تحاول جاهدةً رفع أجفانها لترى الغلاظ الشِّداد سود الوجوه يسحبونها، ثم ينزعون السفود مِن الصوف المبلول.. يتلون عليها سوء أعمالها وما اكتسبتْ يداها، تنهار؛ تشعرُ بيدها الشمال تُرفع عن دون إرادتها لتأخذ كتاب أصحاب المشأمة.. إذن وقعت الواقعة غير كاذبة، لاتستطيع مجرد الصِّياح، هذا يومٌ لا ينطقون، أنفاسها تتلاحق.. ياليتها كانت القاضية.. ياليتها كانت تراباً.

«مَدام.. مَدام»، ياللعجب؛ أتنادينا الملائكة بغير اللسان العربي المُبين؟! وأين النداء يا فلانة بنت فلان؟! أخيراً استطاعت أن تصرخ تطلب العفو والمرحمة، أفلحتْ -لدهشتهاـ في رفع جفنيها.. تُدهش وهي تشم رائحة صافية نظيفة.. تُذهل حين ترى بيض الوجوه ملامحهم فلبينية ! عجباً؛ تجده ثانية يأتيها مُسرعاً مبتسماً صاحب العيون الزرقاء.. إيطالي السَّمت، يربُتُ على يديها حانياً، يعاجلها بإبرة مسكنة لآلام العملية الجراحية، تتوقفُ نهور دمعها.. تنتبه لآلام مُبرحة في بطنها، لا تكترس بوخذ الإبرة، ترنو بناظريها إلى رقم غرفتها 616، تفتر شفتاها عن شبح ابتسامة مطمئنة، تغمضُ عيناها على غير إرادتها، نسيت الشهادة وإجابات الأسئلة الثلاثة.. تخلدُ في نومٍ هادئٍ عميق..

❀❀❀

للرِّجال فقط

رنَّ الهاتف فجأة مُبدِّداً الصمت الذي أعشقه؛ والهدوء الذي أُنفِق وقتا طويلا في استدعائه ومُهادنته؛ فتلك أهم طقوس وقواعد القراءة التي لا أجد مُتعة سواها، قررتُ الا أقطع مُتعتي؛ ولُمتني لأنِّي نسيتُ غلق محمولي كما تعودت دائما، غير عابئة تركته يواصلُ الرنين غير عابئة، حتى يكفَّ ويصمتَ يأساً؛ عُدتُ فرِحة لكتابي؛ أكمل صفحاته بنهم شديد؛ وأُدوِّن على هوامشه بالقلم ملاحظاتي واقتباساتي لبعض الكلمات والعبارات التي تروقُني، مددتُ يدي برفق أتحسَّس الكلمات؛ وكأنِّي استسمحها لتركي إياها دون عُذر أو اعتذار يليق بها.

وكأن الكلمات تبادلني الاهتمام، خِلتُ الكتاب يطيع يدي الحانية ويترفق ويهاودني، قررتُ نسيان الرنين الذي أزعجني؛ وقمتُ أعِد فنجاناً من القهوة التركية التي أجيد صُنعها برائحتها الشهية ومذاقها الفريد، حتى أنّي اشتهرت بمهارتي تلك بين الصديقات، وما إن ولجتُ من باب المطبخ حتى دقَّ الهاتف ثانية؛ فتعجبتُ كيف وقد أغلقته تواً كي لا يُزعجني ثانية؟! انتبهتُ لاختلاف صوت الرنين؛ فهذه المرة كان صوتُ هاتفي الأرضي، لم أجد بُداً من الرَّدعلّ الأمر جلل؛ هكذا حدَّثني قلبي مُتوجساً، وكما توقعتُ؛ كانت صديقتي مها تُبلغني بأنها

بالمشفى، وقد أجرتْ جراحة عاجلة؛ لم يتسنَ معها أن تُبلغ أحداً، هممتُ أن أُعاتبها؛ لكن حالتها الصحية وصوتها الواهن ألجما لساني.

على الفَور بدَّلتُ ملابسي، واتصلتُ ببعض الصديقات أُبلغهن بالأمر، أعلمُ تماماً أنهن سيصلنَ قبلي؛ لأني أقطن إحدى ضواحي المدينة البعيدة؛ ما إنْ وصلت حتى ابْتعتُ مِن فوري طاقةً من الورد الجوري الذي تعشقه مها، صعدت السلم قفزاً؛ حين وجدت المصعد ينتظره عشرات الزائرين، فكيف يطاوعني قلبي وأنتظر وصديقتي الحميمة تودني، وقفتُ عند باب الغرفة كي تهدأ أنفاسي المُتسارعة؛ ثم طرقته بخفّة ويدي الأخرى تفتح مقبضه الذي استجاب بُيسر وسهولة، وما إن دلفتُ مُبتسمة؛ حتى هالني رؤية صديقاتنا بجوارها؛ وقد رانَ عليهن صمتٌ جميل وذهول مُلتذ، وعيونُهن تومِضُ ببريقٍ آخّاذ لم أره من قبل! ارتاحتْ نفسي لهذا الجو، وتاقتْ لتعرف سرَّ هذا الإحساس الهَتون المُتدفق براحةٍ ونعومة تملأن الغرفة بعبقهما.

بمجرد أن قعدت؛ اقتربتْ منّي إحداهن بنعومة ورقَّة -غير مَعهودة- وضعتْ يدها على كتفي؛ تحكي عن طبيب دخل مذ دقائق مُلقياًعلى مَسامعهن كلماتٍ -ليست كالكلمات- دغدغتْ مشاعرهن؛ وهن الزوجات الناضجات العفيفات؛ واللاتي لا تقل أعمارهن عن سنين الأربعين الجميلة، نبهني فضولي لأسألهن عن القصة من أَولها، فقصَّت إحداهن كيف أن مها ساءها تدنّي مستوى الرعاية الطبية والذي لم تكن تتوقعه، ولأجلها ثارت المرافقات، ورفعن مَطلبا واضحاً وصريحا بإسقاط الإدارة -تأثرا بثورات الربيع العربي- ومن حيث لا يحتسبن؛

أتى الطبيب متوجها للمريضة مباشرة قائلا لها بصوت حان: «لقد قلقتي عليكِ»، ثم التفت لإحدى الصديقات وقال: «لم أر في حياتي حجابا بمثل جمال حجابِك»، وسأل الثالثة عن اسمها؛ وأبدى إعجابه بجمال معناه! وهكذا وقف الطير على رؤوسهن جميعا، ورانَ هدوء وصمت ودعة ترقرقت في عيونهن، ووُئِدت الثورة في مَهدها!

انتحتْ كل واحدة ركناً؛ تتذكر آخر مرة أحيا زوجها سمْعها بإطراءة حلوة أو بسمةٍ او قُبلة حانية، كم مرة دفع الحديث معها في اتجاه تشتهيه سفينة روحها وعقلها، كم مرة لمح في عيونها رجاءً يتوق لفتح دروب القلب لكلمة وداد وحُب، كم مرة لم يُعرها اهتماما؛ وترك العمر تنسل أيامه ويمضي قطاره مُسرعا يلتهم السنين التهاماً.

تبوح إحدى الصديقات بمكنون قلبها مُعلنة أنها قد تعذُر زوجها أحيانا لكنها لن تبرئ ساحته دوما، فرغم ضيق صدره وازدحامه بهموم الحياة؛ إلا أنه -شاء أم أبَى- فعرشه مُهدَّد، وأضافت أخرى: أن لنا أسوة حسنة في رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ الذي كان مُنشغلا بأمر الدعوة وهموم المسلمين والجهاد والرَّد على المشركين والمنافقين، وتبتُّله وعبادته الخاصة طوال الليل؛ ومع ذلك لم يهمل زوجاته، فعلى الزوج أن ينتبه لمن أصبحت أسيرة لديه، فما أجمل من أن يحمل حقائب اهتمامه ويهديها لمن اختارته وفضلته على العالمين، فالزوجات لسن مراهقات يسهل إغواؤهن ؛ لكنَّا نبحث عن حقنا في أحاسيس جميلة ضاعت في زحمة الأعباء والمتاعب الحياتية، وعن أزواج شُغلوا عمَّن قبعن في رَحلهم.

قررت صديقتنا حنان أن تُنبه زوجها اليوم حال عودتها للبيت، نهرتُها بضحك؛ لأني أعلم خجلها الشديد وحتما ستفشل في البوح

لزوجها بما تود، لكن باقي الصديقات أخذن في تشجيعها، ولعلهن في واقع الأمر كن يشجعن أنفسهن، لذا طلبن منها ان تلقي على مسامعهن الخطبة العصماء التي ستتلوها على زوجها، ابتسمت حنان ووقفت منتصبة وبكل ثقة قالت: أيها الرجل فكِّر مَليا؛ واستمع إلى شكوى من سكنتْ أضلعكَ؛ أنصتْ إلى بوح القلوب والعيون والمشاعر لا اللسان الذي قد يخجل أحيانا ويعجز عن التعبير، اهتمْ وثمِّنْ مطالبي؛ فقليل من الملح يصْلحُ الطعام، وإذا طابت مشاعري طاب وصلُح البيت كله، التعبير بكلمةٍ عن لمحة جمال في حبيبتك؛ في ملبسي، في طعام أعددته لك وللأسرة، في عطري مهما كان بساطته لا تكلف كثيرا، الكلمة الطيبة صَدَقة، فهل تصدَّقت علي وأجزلتَ ل العطاء؟ اِعْلَمْ أن الكراهية حَجَر هائل يزحف وئيداً؛ لكنه لايعود من حيث أتى أبداً، فلا تجعل ترَقُّبي لاهتمامكَ يطول فيسّاقَط وهجُي ثم لا يعود.

تفرقنا على وعدٍ بزيارة مها في الصباح الباكر، كي تنال خَلاقا وافرا من الراحة، في المساء دار بخلدي كيف ستكون مقابلة حنان بزوجها، وماذا سيسفر عنه بعد أن تلقي على مسامعه ما اتفقنا عليه بالمشفى، كاد الفضول يقتلني، لم أدر إلا والهاتف بين يدي وصوت صديقتي «الجريئة» على الجانب الآخر يشي بالهدوء! سألتها عن أخبار «الخُطة»، مرت لحظات صمت ثقيلة كالجبل، أعقبها صوتها بنبرة أشد هدوءاً وحياءً وهي تهمس لي: «لم أجرؤ».

❀❀❀

البحرُ يعودُ ثانيةً

ولأنَّ حبسَ الدمع أوجَع مِن سَكْبه؛ قرر العاشق المخدوع -بعد ربع قرنٍ من مرافقة ألمه المُتسكع في حناياه- أن يسكب ذُروف دَمْعه في دفتره؛ فإذ بورقِه يزدان بأناقة قلمِه؛ ليكتشفَ أن نُهور حروفه وكلماته لم تكن لتجف؛ بل ازدادت ألقا وبهاء؛ فغدونا أمام قصة بديعة؛ اندفقت في لحظة روعة ساحرة، لتنبئه نفسُه عن مكنونها ودُرّها الخَبيء، ولندرك أن الآلام الروحية المُمِضّة أشد أنواع الأزمات وجعا للمبدع، لكن الإبداع كما يقولون وليد الألم ورمَاد المَحرَقة، لتتجلى الروح في أروع إبداعاتها وشفافيتها.

القصة بدأت لحظة أدرتُ مؤشر المذياع؛ لأُنصتَ للجزء الأخير من حوارٍ مع مُبدع فلسطيني؛ كان ضيفاً على إذاعة بي بي سي العربية من لندن؛ لذا لم أتمكن من معرفة اسمه، ما فهمته هو أن الضيف كان صحفياً، ثم انضم لصفوف المجاهدين وانقطع مدة ربع قرن عن الكتابة، أثناء تلك الفترة صادفَ عِشقَه، فخالَه قصة عمرِه، فإذ به حلمٌ سرابٌ؛ فقد غدرت الحبيبة وغادرت، تاركة قلبه كسيرا جريحاً، فاجتاحته موجة من الكآبة، وظل طوال سنواته الخمس والعشرين

يُسائل نفسه عن سبب هجرانها! ولمَّا لم يَلفَ جواباً؛ أمسك يَراعَه، وسكبَ ألمه على ورقِه، فكانت قصته، أنهاها بسؤاله الحائر الدائم «لمَ غادرتِ حبيبتي؟».. وبدلا من أن تأنس روحه بِرَدِ من الحبيبة يُبَلسِم كنوز أحزانه الدفينة لتهدأ أنّات قلبه الموجعة؛ تلقفتْ وسائل الإعلام والقراء والنقاد روايته؛ لتكشف عن ذات الكاتب الزاخرة بفيوضات الإبداع، فيحصد شهرةً يستحقها وتستحقه، ولتبزغ شمس شهرته، بعد أن وجد «اسطورته الشخصية»؛ ساعة اكتشف مواهبه ومهاراته؛ عقب ملاذه الطويل بوحدته حين اعتراه اليأس... فيا لذاك الاكتشاف.

أُهرولُ للمكتبة أبحث عن روايته تلك، وما إن عثرت عليها حتى فتحتها من فوري بشكل عشوائي، قرأتُ: «كل منَّا مُعرضٌ لأن تبتئس نفسُه، وتدور رحى حرب التشاؤم داخله، ولذلك تحضرني مقولة «باولو كويلو» الروائي العالمي مفادها أن تحقيق الذات هو الالتزام الوحيد للإنسان على سطح الأرض، وهو مايطلق عليه»الأسطورة الشخصية»، فقد تتوتر النفس ويعتريها اليأس لمُضِي قطار العمر، ويُهَيء لنا أنه يتوجّب علينا استقبال نهايات العمر، فإذ بنا -من حيث لا نحتسب- تاتينا لحظتنا الفارقة، لنبدأ من جديد، ولنحيا كل سَنَة في حياتنا بقدر سنوات خلت، فنكف عن اجْترار الندم، ونتشبث بما هو آت، فنهزم خوفنا، ونمتطي شجاعتنا؛ لحظتئذ تطاوعنا مَرافئ الأحلام، وتسير سفنها تترى، فالمجازفة لابد منها، والسفينة وإن كانت آمنة على الشاطئ إلا أنها صُنعت لتمخُر عباب الأمواج، لا لتركن لهدوء الرمال.

أنقدُ البائعَ النقودَ المطلوبة، ابتعت الرواية وبعضا من الكتب الأخرى، أعود لبيتي أقتعد ركني الخاص تحت ستائر نافذتي التي يحط عليها الطَّير في غدوِه ورَواحه، أعاود فتح الرواية من بدايتها تلفتني مُقدمة المؤلف: «لا تلوذ بوحدتِكَ، بل اعشقْ الحياة، وأقبلْ عليها بنَهمٍ وشَغفٍ وتَوق؛ فمِن أجلها خُلقنا، ليسْطر كل منا سطره الخاص فيها، وليُتقنه، ليحقق معنى وفلسفة وجودِه، ولتبحثْ عن كنز حلمكَ الخاص، فقد تجده تحت ناظريك، أو مُخبأ في وجدانك، لكنه يحتاج منك فقط لإزالة غباره، كما نزيله من فوق قطع الكريستال، فيلتمع بهاء بريقها، ويسطع، كما سطع نَجمي، ولنوقن أننا قادرون على الإتيان بمعجزات بشرية، لأن الله قد نفخ فينا من روحه القدسية».

أغلقتُ الرواية شاردةً أستدعي أحلامي التي لم أحققها بعد، أدركتُ أني لم أنسها؛ بل تناسيتها في غبار الحياة اليومية وما يعتريها من هموم ومشاكل، تساءلت كيف استطاع ذلك العاشق الذي احتمل جرحه كثيرا أن ينفض عن كاهله اليأس ويخط سطرَه الجميل في الحياة؟! إذن الهموم والحزان ليست عائقا، بل التشبث بالأمل وإن خالطه الألم تماما كَنَبْت الفَيافي؛ تتشبث بالحياة رغم معاناة العطش، أو كصَدفةٍ؛ حين نضعها على آذاننا نتسمَّع صوت البحر بداخلها؛ وكأنها عن قصد تحتفظ بحنينها له؛ مُوقنة أنَّ البحر حتماً يعود ثانية ليغمر صحراء حياتها كسابق عهدها؛ حينها تنعمُ بروعة اللقاء، قررتُ البحث داخل

خبايا نفسي، عن صدفاتي ولألِئي المُخبأة في الأعماق، وعن أحلام تخليت عنها طوعا أو كرها، دونتُ على حاسوبي الشخصي قائمة بما أود تحقيقه، وهتفتُ بفرح: ليجذبْ كلٌ منَّا مرساته، مُبْحراً نحو تحقيق حلمه، وإدراك دوره الحقيقي في الحياة؛ فلأجل ذلك خُلِقنا، نحَّيتُ الرواية جانباً، وشرعتُ أكتبُ أفكار قصصي القصيرة التي تمنيت يوماً أن أجمعها بين دفتي كِتاب يبحرُ في عبابِ أيام تستحق الحَكي.

هيباتيا العذراء

تشرق الشمس على وجه العذراء الراقية الوقورة؛ فيضوعُ الجمال في فيروز عينيه وشعرها الكستنائي، جمالٌ حيكت لأجله خيوط البهاء والرقة والدلال والجلال، ينداح عطرها الفاتن نحو السماء؛ فتصفو الغيوم كصفاء بشرتها الشبيهة بالدُّر، يلقبونها بذات الأنف والفم المُنمقين، تعزف عن الرجال فيزيدونها عِشقا، تهبُ حياتها للعِلم لتنيرعتمة دروب الجهلاء، موقنة أن عقلها مِرآة للحرية والإنسانية وتبديد للظلام؛ فيكون الخلد رفيقها.

تخرج هيباتيا الجميلة من محراب العلْم العفيف؛ فتهون عليهم ويتربصون بها ليجروها من شعرها الهادر، ويجردوها من حريرها السَّادر السَّاتر، وحين تصبح عارية تماماً؛ إذاهي تُعرِّيهم من حيائهم وإنسانيتهم، يقيدون يديها ورجليها البلورتين بحبالهم الغليظة ليسحلوا الفاتنة في شوارع الأسكندرية حتى ينسلخ جلدها الوضيء، وتشق صرخاتها كبد السماء، ثم يُمعنون في قسوتهم وغلظتهم فيسلخون ماتبقَى من الجلد بالأصداف؛ والأصداف من قسوتهم براء؛ ينهالون عليها بعصِّيهم حتى باتت جثة هامدة، هل اكتفوا يا حبيبتي؟ وكيف

يكتفون؟! وهل يشبع المتوحشون؟! أخذوكِ وألقوا بكِ على كومة الخشب القاسي، وأشعلوا فيكِ ناراً مُوقدة.. ونيران غِل قلوبهم أشد وأغبى وهم يعلمون.

كانت أول امرأة ترافق الخلد ويلمع اسمها في التاريخ كعالمة رياضيات وفلسفة وفلك في الأسكندرية اليونانية قديما في نهاية القرن الرابع الميلادي، أمَنتْ بعقلها وقيمتها وكفرتِ بالجهل؛ فنهلتْ من والدها الفيلسوف اليوناني «يتون» معنى وقيمة الإنسان؛ رجلا كان أو امرأة؛ سافرتْ لإيطاليا وأثينا كي تتقن وتنبغ، وحين عادتْ صارت محط إعجاب التلاميذ والمريدين حتى اعتبرها المسيحيون رمزاً للفضيلة، وهل هناك أروع من فضيلة المعرفة والعقل؟ أجيبيني يا زهرة فواحة وهبتْ نفسها للعلم، ورفضت الخُطاب والولاة الوالهين العاشقين.. أرادت أن ترفض خطيبا جاءها؛ فوضعت نقطة من دمها في خِرقة قائلة له: «إن الرغبة الجسدية ليست بجمال وسمو النفوس واستنارة العقول»، تنشدُ التعبد عِند أقدام عِطر الحِكمة.

قتل «أبوجهل» ذات العفة؛ تلك التي برعت وتفوقت على فلاسفة عصرها، فتزينت بزينة التواضع، وخجلت أن تُكثر من الظهور أمام العامة حتى لا يتهمونها بالتفاخر؛فقد زادها العلم حياءً على حياء، فاحترمها القُضاة والولاة، والتف حولها المثقفون، فغارت الكنيسة -ضيقة الأفق- «آنذاك»، ورفعوا عقيرتهم البهيمية ليعلنوا أن المرأة مكانها البيت،

والتعليم لها حرام! وكأنهم يعيشون عصْرنا المشوه الآني! ثم مثلوا بجسدها البض، ولم يشفع لها استنارة عقلها وقلبها؛ لأنها رفضت قتل المتطرفين المسيحيين لليهود والتنكيل بهم، رغم أنها لم تكن يهودية الديانة، ولكونهم لم يدركوا أن عقيدتها هي الإنسانية الراقية المتسامحة، قطعوا لسانها كيلا تنادي باحترام كل المعتقدات، جردوها من ملابسها كما جردوا البلاد من إبداع الفنانين، حطموا المعابد والتماثيل، وحرّقوا الكتب والوثائق والخرائط بدعوى انتمائها للتراث الوثني!

أسالوا الدم الطاهر لأنك لُقبتِ بالطاهرة؛ وقت كنتِ تهدينهم خرائطكِ للأجرام السماوية واختراعك لمقياس الكثافة واللزوجة ونوعاً من الإسطرلاب؛ لم يهتد العِلم لمثله إلا بَعدكِ بعشرة قرون! ودَّت محو الجهل الذى عشعش في عقولهم وران على قلوبهم؛ بَيْد أنها لم تكن تدركُ وهم يُلقون إليها أغلالهم وأصفادهم أنهم يودونها جارية لفراشهم؛ وقت كانت تقود الأذهان للعلا؛ عدُّوها شيطانة رجيمة، وخَطية عُظمى، وذنب لايُغتفر، وأنّ من يأتها يصبح مرتداً! نعم نعم.. أعترفُ بأنك خطية عُظمى؛ حين تأتين في زمن اللاإنسانية والغلو والتطرف، وأنك ذنبٌ لا يُغتفر؛ حين يقود الظلاميون ويرفعون سواد راياتهم في كل العصور، من كان مريدا لكِ فهو المُرتد حقاً، لكنه مُرتد عن جهله وتوحشه وغبائه؛ راغِباً فيمن يأخذ بيده ليصبح إنساناً.

هيباتيا يا صغيرتي؛ نعم ماتزالين صغيرتي، فلم تتعَدِ سِحر الأربعين من عُمرك الحزين؛ لحظة مزقوا ثيابك بانت سوءاتهم هم، وتكشّفت

عوراتهم هم، وقت سَترَتكِ فضيلتُك وسمَوتِ تماما كاسمك الذي يعني «السامية» باليونانية، ستبقين يا صغيرة شهيدة أزمنة التطرف، اهدئي؛ فرمادكِ المحترق المنثور في الكون امتزج بعروقي؛ فجئتك أناديك يا عذراء الإسكندرية، لا لأُطمئنكِ أن زمن التوحش والوضاعة والحقارة الذي عشتِه ولَّى وانتهى؛ بل لأبكي بين يديك المُخضبتين ببهاء إنسانيتك ونور عقلكِ، أبكي زماننا الذي قبَّحته أفعالنا، أطلِّي علي طَرفي الدامع؛ لتري عصور الاضطهاد والقتل والحرق التي تبودلت بين اليهود والمسيحيين، أعقبه شيوعيون «لم تسمعي عنهم أكيد» يضطهدون أصحاب كل الديانات، ثم يهود يسحقون العرب في أراضيهم المقدسة مسلمين ومسيحين، ثم أمريكيون يستبيحون دماء المسلمين في كل الأمكنة، ثم داعشيون، وأسماء أخرى كريهة تغُول في دماء المسلمين والمسيحين، وتُحطم رموز الفن والجمال والعِلم؛ «الحمد لله أنك لم ولن تسمعي عنهم أبدا».

أيتها النبيلة الساطعة المستنيرة دعينا نواصل «إنسانيتنا» ببذخ توحشها ووضاعتها وحقارتها بنجاح مقيت منقطع النظير، تُراكِ كنتِ تشتاقين لنفتديك من جهلاء ومتطرفي عَصرك أم نحن من نتوق لمساعدتك؟! هلمي فانقذينا؛ علَّ الانتظارلا يطول.. أناديكِ؛ ليتكِ تسمعين النداء.. ليتكِ.

عوَضِية

كملايين الأطفال الذين أصبحوا يولدون وسط مآسي عالمنا الحزين، فلا تكتحل أعينهم بالأحلام الوردية، بعد أن صار النَّهار يُحاك من قماشة واقعٍ مشحون بالألم والوجع، فلا يملكون ترف أن يسافر خيالهم ويحلق بِرَحابة الحرية؛ بل قُيِّد هو الآخر بأغلال الظروف الحياتية القاهرة.

«عَوضِية»؛ كان الاسم كافيا لأن تأمل أسرتها-حين تلقفتها يد القابلة من غيابة رحم الأم- أن تصافحهم السعادة ذات يوم لتعوضهم بؤس حالهم، بيْدَ أن النزاعات البغيضة لم تلبث أن نشبت في جنوب كردفان السودان لتمزقه إربا؛ فهاجر المستضعفون إلى الخرطوم أملاً في لقيماتٍ؛ وشَربة ماءٍ؛ وكساءٍ بسيط؛ يُبقيهم على قيد الحياة مع فرط تواضع أحلامهم.

تلقت عوضية سنوات التعليم الأساسي، ثم توقفت لتَرَدِّي أوضاع الأسرة المادية، نظرت لحالها فلم تجد صنعة تتقنها تكفيها شر العوز، فالقت بخجلها وراء ظهرها؛ وحملت بَرّاد شايٍ وبعض أكوابٍ؛ وافترشت الرصيف؛ لتقعد طوال يومها تحت شمس لاهبة حارقة؛ دون ترف حُلم يَشي بوجود دورات مياه؛ تقضي حاجتها مستترة عن أعين الناس.

«سِت الشاي»؛ أصبح لقبها الجديد، بعد أن توارى اسم عوضية راضيا مَرْضِيا، حينها بدأت طلبات الزبائن تنهمر عليها، فتطير جَزلى فَرِحة تُستبق الرياح مُلبية لطلباتهم -وكلمة «ست» بمعنى سيدة في لغتنا العربية وكذلك الأمهرية والأثيوبية- بمرور الوقت أصبحت المهنة علامة مميزة، يُلاحظها كل زائر للخرطوم؛ بسبب تزايد حدة الفقر؛ والحروب الأهلية؛ والهجرة غير الشرعية خاصة لأثيوبيا وإريتريا.

يقلدنها بعض الأرامل والمطلقات والفتيات الفقيرات؛ فيقتعدن الأرصفة متجاورات اومتباعدات، يتنافسن في تنظيف الأواني وتقديم الشاي بطرق مبتكرة مع ابتسامة رائقة تجذب الزبائن، يزداد عددهن فيصل لعدة آلاف، تغوي المهنة فتيات الجامعات اللاتي فشلن في الحصول على وظيفة بشهاداتهن، ففيفترشن بقية الشوارع ينتظرن جنيهات قليلات تسد احتياجاتهن بدلا من غراقة ماء وجوههن، ونظرا لطول مكوثهن في الشارع؛ يتعرضن للتحرش الجنسي، ومصادرة أدواتهن من قِبَل شرطة النظام؛ خاصة لو لم يكن يمتلكن بطاقة صحية تُفيد خلوهن من الأمراض المُعدية.

خُبِّرَت عوضية أَسرار المهنة؛ ومتاعب صُويحباتها؛ فأطلقت جمعية تعاونية شرق الخرطوم لرعاية ربيبات شاي الرصيف وتدريبهن على مهن أخرى في حال رغبتهن التخلي عن لقب «ست الشاي»، ومتابعة أحوالهن القانونية؛ حال قيام الشرطة بالقبض عليهن؛ ومصادرة

أدواتهن؛ أو تعرضهن للتحرش الجنسي، لكنها بدورها أُودعت السجن مدة أربع سنوات؛ لعدم قدرتها على الوفاء بسداد ديون الجمعية، خرجت بعدها أكثر إصرارا، حتى أصبحت رئيسة لشبكة جمعيات تضم ثمانية آلاف امرأة في الخرطوم وحدها؛ يعملن في مهن أخرى بسيطة لإعالة أُسرهن رغم أُميتهن.

يتردد اسم عوضية في المحافل الدولية لتنال جائزة «المرأة الشجاعة»، لقدرتها على تحسين ظروف آلاف الأسر السودانية الاقتصادية والقانونية رغم بساطة المهنة، تقرر أن يمتد نشاط جمعياتها ليشمل السودان كله، آملةً في النهوض بالحركة النسوية السودانية ليصل صوت الكادحات الفقيرات لصُنَّاع القرار.

غرور

تودَّدَ إليها فتوجتهُ، فلما اغترَّ أهملَتهُ، ولأنَّ المشاعر الصادقة لا تليقُ بالأرواح الزائفة؛ تركَتهُ في صفوف النادمين مُصطحباً وجع الأسئلة.

الخاطبة

قررتُ أن أشتغل «خاطبة».. هكذا سَوَّلت لي نفسي الأمَّارة؛ حين طلبتْ مني إحدى صديقاتي عروساً لأخيها، وبسرعة البرق هداني عقلي لابنة صديقتي الأخرى، واطمأن قلبي وقلت نِعِمّا هي تلك الزيجة؛ لتقارب المستوى الاجتماعي والثقافي بين العروسين، وأثنيتُ على فراستي، وسعيتُ سعيا حميما لتوفيق رأسين في الحلال، وتعجبتُ ممن يزعم أن المَشي في الجنازة مقدم على المشي في الجوازة! ولبستُ مُسوح التقوى؛ أدعو ربي أن يجعلها صدقة جارية لي يوم العرض عليه.

بدأت مجهوداتي تؤتي أُكلها، وأوشك اللقاء «الصالوني» أن يُسفر عن فوز مبِين في أولى خطواتي كخاطبة، وقبل أن أنتشي وينتفش ريشي، صكَّ أذني سؤال مفاجئ من حيث لا أحتسب من أهل العروس حول اتجاهات العريس السياسية! طبعا قلت أضغاث أحلام، وأن رأسي تحتاج إلى «فرمطة» كالحاسوب من كثرة مشاهدة التلفاز، ولكن بعد إعادة السؤال تأكدت أني في عِلم ولستُ في حلم، طبعا كان السؤال تتمة للعبقرية المصرية التي أكدت لنا أننا شَعبان نعيش في وطن واحد،

ولفرط سذاجتي كنت أحسبُنا شعبا واحدا منسجما مذ آلاف السنين، وطبعا فشلت الزيجة لأن العروسين من شعبين مختلفين.

على سبيل التندر والسخرية؛ قررت نشر ما حدث على موقع التواصل الاجتماعي؛ لأشرك أصدقائي الإعلاميين الضحك على هذه المأساة الملهاة، فإذا بي أتلقى سيلا من التعليقات الصادمة.. الأول رفض أن يجتمع «الشامي مع المغربي»، والثاني يؤكد أنه رفَض عريسا لابنته لأنه من أنصار الرئيس مرسي، والثالث رُفِض لأنه كان مؤيدا لحزب النور، والرابع يلقي اللوم على «عام الكراهية « الذي حكم فيه الإخوان وتسببوا في تقسيمة الشعبين، والخامس –يعيش بلندن– أشار إلى أن تسطيح العقول بهذه الطريقة يعود لفترة حكم حسني مبارك التي قضى فيها على عقول المصريين، وسادسة شكت من «وقْف حال» بناتها لأن العرسان ليسوا من نفْس الشعب، وسابع أعلن رفضه القاطع للتوفيق بين من أيَّد التفويض للرئيس السيسي ومَن رفضه، وسخرأحدهما من أن الزواج المختلفي الاتجاهات لن يؤدي إلى إنجاب الصبيان و البنات؛ وإنما إلى حشد مليونيات ومظاهرات واستخدام الملوتوفات والخرطوشات، وآخر أشار لتلك الزوجة التي أخذتْ أبناءها وتركت بيت الزوجية تطلبُ طلاقا بائنا لارجعة فيه لأن زوجها من جماعة الإخوان.

تفاجأت بالردود، فطلبت الحلول، وبعبقرية مصرية ساخرة لا مثيل لها –كالعادة– طلب أحدهم بضرورة إتمام الزيجة بين الشعبين في الأمم

المتحدة، وأخرى ناشدتْ الأزهر بعقد زواج مدني كالذي يحدث بين الطوائف المسيحية المختلفة مذهبيا، وثالثٌ نادى بفتح مكْتبين؛ واحد يحمل لافتة لزواج الفلول، والآخر لزواج الثوريين، ورابعة قدمت لنا إعلانا مبتكرا مكتوبا فيه «فلان الفلاني/ أعزب/ موظف/ لديه شقة/ وليست لديه ميول سياسية».. وقبل أن يتسرب الإحباط لنفسي وأعتزل مهنة الخاطبة قبل مزاولتها؛ بشَّرني أحد الأصدقاء بأن الحل يكمن في مكتب يحمل لافتة: «زواج المتحولين» معلِقا بقوله: «ما أسرع التحول في المواقف هذه الأيام».

هالني ردود الإعلاميين الذين يُصرون على الرفض التام لعودة اللُحمة بين أبناء الوطن الواحد، وأدركتُ أننا بحاجة لجهود ليست هينة من علماء الاجتماع والدين والمثقفين المخلصين لعلاج التشوهات التي أصابت الشخصية المصرية وجعلتها خَربة حتى أبرزت أسوأ ما فيها وتباهتْ به! أية رسالة إعلامية يقدمها إعلامنا إلا عدم الرغبة في رأب الصدع، ومزيد من الشرخ وتعميق للجرح واستمرار للنزف، وإن دل على شئ فإنما يدل على نفوس نسيت أن الوطن كالإنسان؛ حين يخرج من الجنة (شعب ووطن واحد) فكل الطرق أمامه تقوده إلى جهنم حتما.

رِزق

قدَّم لها فنجاناً من القهوة؛ فنفحَتْه ابتسامةً رائقة، أغلق المقهى مُكتفيا برزق يومه.

الإرهابي

ظلامٌ دامسٌ إلا من بصيص نورٍ واهنٍ؛ تخالُ نفسكَ في غرف التحقيقات البشعة في أحد المعتقلات؛ فلا تعرف من أين سياتيك صوتُ مَن يستجوبك.

ثلاثةٌ من مقدمي أحد البرامج التليفزيونية الألمانية يقعدون في تحفزٍ واضح؛ مُصوبين نظرات الاتهام صوب «عبد الكريم»؛ ذلك المُسلم الألماني الذي يقبع وحيداً في جانب من الاستديو؛ يلفُه الظلام عدا بقعة ضوئية مُسلطة عليه؛ كي لا يرى الجمهور الذي حضر خصيصا؛ يرومُ مشاركة البرنامج في الحُكم على الدين الإسلامي «الإرهابي».

الحوار يدور كالتالي:

المذيع الأول -بجِدّة-: عبد الكريم؛ عليك أن تتبرأ من الهجوم الإرهابي.

عبد الكريم -بسخرية-: أي هجوم تعني؟ الهجوم ذا الضحايا الكثيرة الذي حدث في البلدان العربيةً؛ أمْ ذا التعاطف الكبير الذي حدث في فرنسا؟! ولِمَ أتبرأ؟

المذيع الثاني -ساخراً-: لأنك مسلم؛ ومنفذو الهجوم الإرهابي مسلمون.

عبد الكريم -مُندهشا-: لكني ألماني؛ والشرطي الفرنسي الذي حاول منع الهجوم كان مسلما، والعامل الذي أنقذ اليهود في حادث صحيفة «شارلي إبدو» كان أيضا مسلما!

المذيعة -بحرج شديد-: ليس كل مسلم إرهابياً؛ ولكن كل إرهابي مسلم، كذا عليك أن تتبرأ من تنظيم داعش.

عبد الكريم -بإصرار-: أتبرأ من كل متطرف يشوه ديني الإسلام، ولكن ماذا عنكم أنتم؛ هل تبرأتم من النرويجي «برايفج» المسيحي الإرهابي عضو جماعة فِرسان المعبد؟

المذيع الأول -مُتهرباً من الجواب-: أنا مُلحد.

المذيع الثاني-مُستشعِرا الحرج: وأنا مسيحي معتدل، نادرا ما أذهب للكنيسة إلا لأجل أن أولادي يحبون زينتها.

عبد الكريم -مُندهشا-: وماذا عن أمريكا؛ حين يُقتل الأطباء الذين يقومون بعمليات الإجهاض بيد المتطرفين المسيحيين؟

المذيع الأول-مُؤكدا-: تلك حالات فردية.

عبد الكريم: وماذا عن «جوزيف كوفي» الذي ينشر عصابته المسلحة في أوغندا مذ العام ألفين وسِتة؛ وتقوم ميلشياته بخطف الأطفال واغتصاب النساء، وذبح آلاف الأبرياء بالسكاكين والمناجل؛ بهدف إقامة دولة مسيحية تتخذ من الوصايا العشر مرجعا لها؟!

المذيعة: هؤلاء متطرفون مسيحيون نتبرأ منهم؛ لأنهم يفسرون المسيحية طبقا لأهوائهم.

عبد الكريم -بارتياح بالِغ-: هكذا يفعل بعض ممن ينتسبون للإسلام؛ حالات فردية أيضا، ثم أنتم ألمان لِمَ لَمْ تتبرأوا من النازية وجرائمها؟

مقدمو البرنامج الثلاثة يستشعرون الحرج؛ يدمدمون بكلمات مُبهمة غير مفهومة، ثم يعلنونها صراحة: بمجرد وقوع حادث إجرامي فردي فإننا نضع مجموعة كاملة من الناس في دائرة الاشتباه والشك، وهذا خطأ فادح، ونحن من خلال هذا البرنامج نقول: لا تمييز بسبب الانتماء أو الدين أو الجنس؛ وهذا هو ردنا على هجمات باريس، فالإسلام جزء من ألمانيا التي تحترم كل المعتقدات.

ينهض المذيع الأول متحمسا ليحضر حِجابا إسلاميا؛ تدلف خلفه زميلته المذيعة فترتديه؛ كنوعٍ من التضامن مع عبد الكريم المسلم، ينخرط الجمهور في حالة من الارتياح والتصفيق الحاد، وعلى الفور تَسطع أضواء الاستديو؛ ليرى جميع أطراف الحوار أنفسهم بجلاء؛ وابتسامة رضا تعلو الوجوه.

الفراشات

بهدوء غير مُبالٍ اغتالَ فراشتَه بقصيدة مُقفَّاة بالألم والوجع، فاستسلمتْ لخيباتٍ تجرُّ خَيباتٍ أخرى أكثر سَخاءً، لم يترك لها سوى الحزن ومُرّ المشاعر وعواطف خاوية على عُروشها وحياة باذِخة البرودة، تحصَّنَتْ خلف سياج الصمت؛ واقفةً بكبرياءٍ على أوجاعها، عشقَتْ الحياة حدَّ الثُمالة؛ لكن أسباب الرَّحيل اختارتها، فلما اكتظ بها الموت؛ استحالتْ لكلماتٍ وحَكايا لا يقوى على سَرْدها غيرُها، انسحبتْ في هدوء؛ كَتَبتْ تودِّعُه: تعرِفُ كثيراً عن حياة الفراشات؛ فاتَكَ أن تعرفَ شيئاً عن موتِها.

جُزُرٌ متعزلةٌ

بعد يوم عمل شاق؛ عدتُ للبيت أنشد بعضاً من الراحة والسكينة، توجهتُ إلى كرسي المفضل في «الأنتريه»؛ أُلقي عليه جسدي المُنهك، أصطحبُ معي كوبا من الشاي وكتابا لم أكمل قراءته مذ أيام، مددتُ ساقي أمامي باسترخاء، أغمضتُ عيني قليلا أستعيد هدوء نفسي وبعضا من الراحة المفقودة، أشَحتُ بوجهي عن «الريموت» الذي يُغويني لفتح التلفاز، وبدأتُ ممارسة حقي في تخليص عقلي مما علِق به من مشاكل ومهام؛ كي يمارس بعضاً من التأمل وصفاء الذهن، فجأة تنبهتُ على صوت محمولي الذي نسيت غلقه؛ مُعلناً وصول عدة رسائل على «الواتساب»؛ قررتُ ألا أعِيرها التفاتا، ولكن بعد دقائق عادت الرسائل تنهمر، غير عابئة بتعبي، مُعلنة تحديها لي، آنئذ لم يكن أمامي بُد من الخضوع لقراءتها.

مِن ابني كانت الرسالة الأولى؛ كتب يقول: «من فضلكم لا أحد يفتح عليّ باب غرفتي؛ لأني مشغول بالحديث مع صديقي على اللاب توب»، الرسالة الثانية كانت من ابنتي ذات الثلاثة عشرة عاما تسألني عن نوع طعام العشاء الليلة، أما توأمتها فكتبتْ تبلغني أنها ستدعو صديقتها عندنا غدا لتمضى معها اليوم وهذا فقط: «للعِلم والإحاطة»!

وأنها ترتب الأمر مع صديقتها عن طريق «بي بي إم»، أما الرسالة الرابعة فكانت من زوجي يطلب طعاما مُعينا للعشاء؛ شَرط أن يأكل وحده في غرفة مكتبه، لأنه يشاهد «اليوتيوب» على حاسوبه الخاص!

أدركت أن فترة استرخائي ومحاولتي تلمُّس بعضاً من الراحة والتركيز في قراءة كتابي أضحتْ ضرباً من المستحيل، فرفعتُ صوتي أنادي أولادي؛ أسألهم عن رغبتهم في تناول العشاء فلم يجبني أحد، وكيف يسمعون وهم يضعون السماعات ليل نهار في آذانهم! أغلقت المحمول؛ وأغمضت عيني قليلا؛ أُمنّي نفسي أن ماقرأته على الواتساب كان مَحض خيال ووَهْم، فلم تمض دقائق حتى تفاجأت بأبنائي ومن خلفهم كبيرهم «زوجي المحترم طبعا»؛ يلتفون حولي وأعينهم تقذفني بنظرات لَومٍ وعتاب واستنكار؛ لأني لم أستجب لرسائلهم، ولامَني الجميع لإهداري وقتهم الثمين مما كلَّفهم مشقة الحضور إليّ، وترْك أجهزتهم الحميمة التي يعكفون عليها صباح مساء.

أبناؤنا يعيشون في عوالمهم الافتراضية؛ يستترون خلف شاشات أَلِفوها بشكل عجيب، ففقدوا قدرتهم على التواصل الاجتماعي مع الآخرين، بل لا يريدون تَعلم تلك المهارة، حتى أثناء الزيارت العائلية يصطحبونها معهم، يجلسون متجاورين ولكن أصابعهم المتمرسة تسحبهم ليحلق كل منهم في عالمه الخاص، فترى أحدهم يضحك، والثاني يغني، والثالث يرقص، والرابع يفتح فاهَه مُندهشا مما يراه

على شاشته، حتى ينتهي موعد الزيارة؛ وماتزال أصابعهم وأبصارهم وعقولهم مُعلقة بما بين أيديهم؛ داخل المصعد وعلى السُّلم وفي السيارة؛ حتى يصلون البيت، فيمضي كلٌ منهم مُسرعا نحو غرفته؛ يكْملون ليلتهم بشغف شديد مع أجهزتهم الساحرة.

تذكرت أساتذتي في كلية الإعلام الذين علمونا أن الاتصال نوعان: إما وجهاً لوَجه وإما جماهيرياً، لكنهم لم يكونوا يدركون ذلك النوع الثالث من الاتصال وهو «الاتصال عبر الغرف» بين الأسرة الواحدة في البيت الواحد! هكذا صار حالنا بعد الانتشار الكبير لوسائل التقنية الحديثة، والتي كان الهدف من اختراعها جعل العالم قرية صغيرة يسهل الاتصال بأية نقطة فيها ومعرفة أخبارها، أما الذي حدث بالفعل أن أصبح العالم جُزرا منعزلة، باردة، تفتقد للدفء الإنساني، وتخلو علاقاتها من التراحم والتواصل، وأصبح بكبسة زِر يصنع كل منا عالما افتراضيا يعيش فيه ويتفاعل ويتواءم معه ويخشى أن يزعجه أحد، مُفضلا العزلة التامة عمن حوله، محطمين بذلك مقولة أن الإنسان اجتماعي بطبعه.

أفقتُ فجأة من شرودي على صوت أولادي يصرخون من غرفهم يطلبون العشاء، فقمتُ مُسرعة ليكفوا عن إزعاجهم؛ وأدركتُ ساعتها أن الرسالة عبر الواتساب أشد رأفة بي وألطف وَقْعا؛ خاصة مع مايصاحبها من صفارة رقيقة غير مُزعجة مُعلنة عن وصول رسالة جديدة.

موسيقى

أتخلى عن ملابسي، أخلع معها ذنوبي وخطاياي وأحلاماً وُئدتْ في مهدها، أدنو منه عارية بلهفةٍ دون وَجلٍ؛ يغسلني بالملح والموج والرمال، أتوضأ، أخْلقُ من جديد، مِن ماء غير آسن، تزول عني أدراني، تشفُّ روحي، أهفو إليه، أتودد، أُهامسه، أعشقه، أُنصتُ له، يُعجبه إصغائي؛ يبوحُ لي بسرِّهم، فهنا ليلٌ حانٍ مُنسجمٌ يرقُّ لعاشقيه، وذاك قمرٌ هائمٌ يُخفتُ نورَه، وذلك موجٌ يتهادى في دلال لمُريديه، وتلك موسيقى ناعمة تسْري مِن سفينة رائقة المِزاج؛ كلَّما يضوعُ عزْفُها تنتشي الأمواج، وحين تَهمسُ النغمات يهدأ مَوجُه ويستكين. . .

الآن لن يُخفيَ عني أمرَه؛ فالبحرُ يفهمُ لغة الموسيقى وحروفها، وأنا قد تَطهرتُ له وأُجدتُ العَزف.

رسالة حُب

صرتَ سراً في الأعماق؛ أشتهي ابتسامتكَ الحانية، أتوقُ لعينيك المُحفِّزتين، أُقدِّرُ حَزماً وحِرصاً وخَوفاً صادقاً ترك في حَنايا القلب ذكرى عِطرة، أصبحتَ طيفاً جميلاً يسكنُني، كلما عُدتُ لمدينتي أُنعِم النظر إلى الأسوار القديمة، أتذكر كيف كانت مدارسنا تحوي كنوزا خوالد مِن مُعلمين جليلين؛ أحبوا مهنتهم وأخلصوا لها، فحفروا في الوجدان مكانةً سامية تليق بهم، إليهم وددتُ أن أكتبَ رسالة حُب، كم تمنيت أن تصلهم.

أطوف حول مدرستي -والتي تحمل اسم الإمام محمد عبده رائد التنوير- أتسَمَّع صوت المُعلمة تشيد بي أمام الفصل؛ لأنِّي استطعت حِفظ جدول الضرب؛ وفي نفس الوقت تعاقب ابنتها لتقصيرها، ويكأنها تلقننا الدرس أن الجميع سواسية دون تمييز، فتتذكر عمر ابن الخطاب وهويُصر على جَلد ابنه رغم كونه ابن الخليفة.

أتلفّتُ للمبنى العتيق؛ فأتذكَّرُ لطمةً تلقيتها على وجهي من أستاذي إسماعيل؛ لدخولي الحصة بَعده بلحظات؛ أشكو لأبي كي يثأر لكرامتي التي أُهينت أمام زملائي، تُحدثتني نفسي كيف يُفعل بي ذلك وأنا التلميذة المتفوقة والتي لطالما شرَّفتْ المَدرسة في العديد من المسابقات؛ وتبوأت المراكز الأولى؛ فكيف أُعاقب وأُهان بدلا من أن

أُعامل معاملة خاصة، لحظتها توعَّدت أستاذي في قرارة نفسي بوالدي الذي سيجيء ليجفف ماء وجهي الذي أُريق؛ فإذا به يأتيه ليشدَّ على يديه قائلا: «اكْسَرها وأنا أداويها في المشفى»! وقتها نكَّستُ رأسي خجلا، لأتفاجأ بيد مُعلمي الحانية تربتُ على ظهري بعطفٍ بالغ؛ تُعلمني أن العقاب أحيانا هو الوجه الآخر للحُب والحرص عليّ؛ لأكون دائما قدوة لزملائي دراسياً وسلوكياً.

أمد يدي لباب المدرسة؛ فينفتح لي مُرحبا؛ أدلفُ لقاعة الرسم حيث حصص التربية الفنية، أخال أبلة عايدة وهي تعاقب كل من ينسى دفتر الرسم أو الألوان بوضعه على كرسي «السعادة» كمّا كنا نَتندرُ ونسميه سِرا؛ وتنادي عم «سيد» الفرَّاش ليخلع أحذيتنا وجواربنا، ويرفع أقدامنا عارية لتنهال عليها بالخيزرانة، فتَعلَمنا الحرص على أن نأخذ كل الأمور بجدية، فلا فرق بين مادة دراسية وأخرى، سواء أكانت تضاف للمجموع الكلي أو لا تُضاف، وكأن لسانَ حالها يقول إنَّ العِلم والفن الراقي صِنوان للحفاظ على رقي الإنسانية.

يتناهى إلى مسامعي خطوات مدرس اللغة العربية؛ عاشق الفصحى؛ فلا ينطق إلا بها حتى أثناء الفسحة المدرسية، ويتَبدَّى عِشقه وهو يُملي علينا قواعد النحو والصرف بطريقة ألفية «ابن مالك»، ليفتِننا ويُبهرنا بلساننا العربي وهويتنا.

أشعر بالتعب؛ فاقتعدُ كرسياً، أُدقق قليلا، ألمح اسم مُنى؛ مُعلمة الفلسفة والمنطق مَحفورا علي قاعدته؛ فقد كان المعلمون يكتبون

أسماءهم على مقاعدهم حفاظا على الخصوصية؛ ما أروعها؛ ساعة فاجأتني بزيارتها لي في بيت أسرتي مُهنئة بحصولي على المركز الثاني في الثانوية العامة على مستوى المحافظة، تحمل بيديها هدية رائعة، فتعلمتُ منها تواضع الكبار، صرنا بعدها صديقتين حميمتين ولم تُلقِ هي بالا لا فارق في السن بيننا.

يدق جرس المدرسة؛ فتصطف الطوابير إيذاناً بتحية العَلم، أبدا تقديم فقرات الإذاعة المدرسية التي كنت أُعدها وأُقدمها كل يوم، فإذ بالستاذ حمودة موجه التربية والتعليم بالوزارة يحرص على الحضور مُبكرا؛ ليشهد وقائع الطابور، يُنصت للنشيد الوطني وما أُقدمه من فقرات الإذاعة، وبخطوات نشِطة يتقدم نحوي، ويُمسك بمُكبر الصوت مُشيداً بي أمام أكثر من ألف طالبة وجمْع الأساتذة، وقبل أن يتملكني الزهو والغرور؛يلومني أمام الجميع لأني تجاوزتُ وانتعلتُ حذاءً مُخالفاً للون الأسود الذي تفرضه قوانين المدرسة، فعلّمني آنئِذ أن القدوة ومن يتولى أمراً بيده أحق أن يكون أكثر الناس التزاماً، وأن المناصب لا تضع صاحبها فوق مستوى المُساءلة.

كم تمنيتُ -أساتذتي الأكرمين- أن تصلكم تحاياي، كم أُحس ندماً لتأخري طوال السنوات الماضية أن أوفيكم شكراً وامتناناً وتقديراً، لكني أدعو ربي أن يشملكم برحماته أحياءً وأمواتا، وأن يغفر لي تقصيري تجاهكم، على صوت نفير سيارة كادت تدهسني افقت من ذكرياتي، قفزت سريعا فوق الرصيف؛ استندت بيدي على حائط المدرسة، ابتسمتُ فمازالت مدرستي تواصل احتوائي.

أنا الحُرَّة

لستُ ابنة زماني وحده، بل أنا ابنة كل الأزمنة، كُتب عليّ دوما أن أظل في حالة حرب؛ مذ سلمني أبي آدم إلى قابيل، تعاقبت أجيال من البشر؛ ساد بعضها سلام وأدمت بعضها الآخر، وظللت على الدوام في حالة رباط؛ يسلمني من قيد إلى قَيد من المجتمعات الغارقة في البدائية إلى أرقى المجتمعات التي تكرم المرأة بجعلها سلعة وتحويلها إلى متاع، يظل الذكور معصومين من اللوم، وأنا المُلامة وحدي؛ مُلامة إن عشقت أو لم أعشق، كرهت أو لم أكره، سترت جسدي أو تركته نهبا للعيون، عصمت روحي أو تركتها تتبدد مني وتغترب عني.

إن كنت عاقرا أو أجَّلت الإنجاب تفترسني العيون، كأني لم أُخلق إلا لهذا، إن أصبحت لي قبيلة من الأولاد والبنات يظلون مُعلقين في عنقي، أُضحي من أجلهم، وأُصادر حياتي ليعيشوا، وألغي ذاتي ليستمتعوا، وأدهس روحي لتظل أرواحهم طليقة مُحلقة، بعد كل هذا يمكن أن يخرجوا للحياة ويتركوني وحيدة غير مُبالين بما ضحيت.

مهما فعلتُ في الحياة أظل الخطيئة نتيجة أفكار متخلفة ابتدعوها؛ صوتي عورة، وشعوري عورة، وجسدي عورة، وقلبي عورة، إن كتبتُ ما أحس تتلقفني الظنون؛ لماذا كتبت؟ ولمن تكتب؟ وإن لمعت عيني

بفرحة يظل كل من حولي يفتش لماذا فرحت؟ ولمَ تلمع عيناي؟ إن قلت كفى لزوج أو أخ أو أب أو ابن تَدهَس روحي أفعاله تعمل آلة القيل والقال؛ باحثةً عمن أغواني أو أغويته، وإن خفق قلبي بمشاعر بريئة تجتمع الدنيا لإدانتي، وإن أحست روحي أنها تتوحد بروح أخرى؛ اعتبروا ذلك جنونا، وأعادوا فرض وصايتهم عليّ باعتباري لا أصلح أن أكون قيمة على نفسي.

حق الخيال مُصادر، حق التفتيش مكفول لهم؛ في أوراقي وملابسي وخلايا جسدي، يتسمعون لما أنطق في نومي وصحوي، يحاولون النفاذ إلى روحي من النظرات واللفتات وبريق العيون وابتسام الشفاه أو مصمصتها أو انقباضها، عليّ أن أكون طوال الوقت الأسيرة المُستعبدة التي تلبي طلبات السيد حين تُؤمر، أن تبتسم أو تعبس حينما يريد، تستيقظ وتنام وقتما يحلو له، تقطع كل صلاتها بالدنيا لأنه يرى ذلك الأصوب والأنجع، مُتكئاً في حُكمهِ تارة على دين وأخرى على عادات وتقاليد بالية. ليته الآخر يعرف أنني بشر مثله من دم ولحم، يحب ويكره، يسعد ويشقى، تؤسر روحه وتتحرر، وأنني مثله بحاجة لإطلاق طاقاتي والسعي لتحقيق أحلامي، لست سقْط متاع ينقلني حيثما يريد، ويتخلص مني وقتما يريد، بل إنسانة كاملة الإنسانية؛ أُحارب وأحلم، وسأكون رغماً عن الكون كله، سأكون أنا ولن أكون سواي، أمتلك ناصيتي؛ فالله جل في علاه لم ينفخ الروح في آدم وطلب منه أن ينفخ الروح فيَّ، أنا نسمةُ هذا الكون الملهمة وصانعة الأبطال، وسيظل آدم من تشكيل حواء؛ وليس عدلاً أن أُعلّمه الرماية كل يومٍ فلما يشتد عوده يرمني!

الطلاق الزُّؤام

باغتتني إحدى الصديقات وجعلتني «الأدْمن» لصفحة ثقافية دون مشورتي، وفوجئت بإشعار»فيسبوكي» بأني قد توليتُ هذا المنصب الرفيع، حاولتُ أن «أبوس القدم» كي تُبدي هي الندم وتتراجع فرفضَتْ، أُصِبتُ بالاضطراب؛ لأن الصفحة مُزينة بزينةٍ الكواكب من الكُتاب والشعراء وأهل الفن والأدب، وما الذي أكونه أنا وسط هذه القامات السامقات، وكيف أبدي رأيا وأنا أدرِي أنّي لاأدرِي، فرفعتُ شعاري على الصفحة طالبة العفو والسماح من سِت المِلاح، لأن هذا المنصب الرفيع لن يسلم من الأذى، وستُراق على جوانبه الدم (دمِي أنا طبعا) وتصبح الصفحة التي قضتْ على كِتاب حياتي ياعِين.

لم أجد مَهربا ولاملجأ، فشمَّرتُ عن ساعد الجد، وقلت أن المواجهة قادمة لامحالة، واستعنتُ بالله على الشقاء، وخلعتُ الحذاء على استحياء، ودخلتُ الصفحة بهدوء حتى لا يشعرنَّ بي أحد، ولكن وقعت الفأسُ في الرأس، ولمحني أديب ومفكرالصفحة ومبدعها؛ وطلب رأيي في أحد الأعمال الفنية، فقررتُ ارتداء مسوح النُّقاد، واستعرت كلمة من هنا وأخرى من هناك من أمثال (الوعاء الناقل

للثقافة، والوجدان الشعبي، والطقوس الحياتية، ومن الميلاد إلى العَدودة) وغيرها من العبارات؛ في توليفة أتقنتها؛ حتى أُثبتُ له أن الصفحة قد تشرّفتْ بي، وتخيلت أن الأمر سيقف عند هذا الحد، ولم أدرِأنه انقلب للجد، حيث تفاجأت بأديبنا يُبدي إعجابه بتعليقي «البليغ الشامل الشافي الوافي، وتحليلي الثاقب الموضوعي» على حَدِّ قوله.

طبعا نفشتُ ريشي، وانتفختْ أوداجي، وصدقتُ أنّي ناقدة ولست حاقدة على كل موهوب في الشعر والأدب، فكم تمنيتُ أن تزول النعمة مِن عنده لتأتيني أنا (أيوه عارفة إن ده حسد).. المهم أَبَى أديبنا إلا أن يُسِرّ لي بمكنون صدره (وليته ما فعل)، إذ قال بالحرف الواحد: «لا أخفيكِ سرا في أنه ساورني الشك في قدراتكِ ومواهبكِ الفكرية والعقلية كامرأة (خدوا بالكم من كلمة امرأة دي) ولهذا تابعت مقالاتك الصحفية، فأُعجبتُ بلغتكِ وتعبيركِ وفكركِ، فقررتُ أن أعتذرلك»، ثم ألقى اللوم على مجتمعاتنا العربية الذكورية؛ التي تُحقِّر دوماً «نون» النسوة؛ وترفعُ من شأن «ذال» الذكورة.

لاأخفي عليكم أرغيتُ وأربدتُ وأزبدتُ، وتقمصتُ شخصية فريد شوقي؛ أقصد عنتر بن شداد، وقررتُ الدفاع عن الحمى وأهل الحي من النساء، ورفعت شعار: «عليّ وعلَى أعدائي يارب»، وقررت الانتصار التام أو الموت الزُّؤام، وشاورتْ صديقة؛ أحسبها شريرة مثلي؛ فأرسلتْ لي على الواتساب صورة «قبضة يَدٍ»، فتذكرتُ وقتها ما درسته في كلية

الإعلام بأن الصورة أبلغ مِن ألْف كلمة، وأن الضربة القاضية هى الحل، ولابد من النِّزال والاقتتال، شمرتُ عن ساعد الجد (تاني)، وبدأتُ في تلقينه حصة تاريخ مُطوَّلة؛ مذ كليوباترا وحتشيسوت ونفرتاري وبلقيس ومريم وأسيا وزليخة وهاجر وسارة وخديجة وعائشة وفاطمة الزهراء وسكينة وزينب ونفيسة العلم وشجرة الدر ومارجريت تاتشر وأنديرا غاندي وبنظير بوتو حتى جولدا مائير لم أتركها.

فجأة لفتَ نظري أن كل تلك النماذج التي أوردتهاغيرعربية؛ عدا نساء بيت النبوة، وهذا إنما يدل على عظمة النبي ﷺ؛ حين طبَّق الإسلام الحق، فتبوأت النساء مكانتها العالية باعتبارهن شقائق الرجال، والاختلاف فقط في نوعية الأدوار المَنوط بها، أما الآن فمازال الرجل يمارس قهره لقدرات المرأة ومواهبها، ثم يتهمها بضيق أفقها وضعف امكاناتها، وهولا يعلم أنه بغروره الذكوري اعطى لنفسه مِقود العالم، فقاده للحروب والشرور ناسِيا بلقيس الملكة التي وعتْ أن الملوك إذا دخلوا قرية جعلوا أعزة أهلها أذلة فآمنتْ وأنقذتْ شعبها.

أوَ لستم معي تتفقون أنه حين تقود النساء العالَم سيُصبح أكثر رحمة ورأفة؟ أسمعُكم تجيبون بالموافقة، لذا قررت كتابة سلسلة من المقالات «الخبيثة في نظر البعض»، تُعلي من شأن المراة، وتوضحُ دورها عبر تاريخ البشرية؛ وكيف نجحتْ كملكة وزعيمة وأم وزوجة ومُعلمة وعالِمة ومُربية وحبيبة، وعطفتُ عليها بمقالاتٍ توضح كيف أن

شرور العالم ناتجة عن حروب قادها رجال متعطشون للدماء والعظمة، واتصلت بالعديد من الجهات المعنية تمهيدا لإلقاء محاضرات أحشد فيها الصديقات والسيدات المهتمات بل والفتيات الصغيرات لرفع وعيهن بأهم قضية في حياتهن.

قررتُ من باب التجربة «أعمل بروفة» على زوجي، فدلفتُ لمكتبه أُسمِعهُ بعضاً مما كتبْتُ، وبعد أن أنتهيتُ؛ فاجأني بورقة وقلم وقد دونَ فيها عشرات الكلمات التي يجب عليّ حذفها من مقالاتي لأنها لا تناسب كوني زوجة! وأخرى لا تليق به لكونه رجلا صعيديا تُحتم عليه بيئته «المُتزمتة» ألا نتناولها لأنها «عيب عندهم» وإن لم تكن عيبا عندنا! وكلمات أخرى يرفضها «بس مش عارف السبب»!، حتى العناوين اعترض عليها! اكتشفت في النهاية أن مقالاتي تم تفريغ محتواها بملاحظات زوجي العزيز، وقبل أن أغادر مكتبه رفع صوته بنبرة مُحذّرة من نشر هذا الكلام «الفارغ» على حد وصفهِ! عُدت لمكتبي أجرُّ أذيال الخيبة والهزيمة، أنظر لمقالاتي بعين الحسرة والأسى؛ وطوفان من الإحباط يغذُّ الخطو نحو روحي، إذ كيف سأدافع عن قضايا المرأة وأنا مثالٌ للمراة المقهورة؟!، اقتعدتُ كرسي مكتبي، تناولتُ ورقة بيضاء؛ أمسكتُ قلمي الحِبر، دونتُ بخط كبير في وسط الصفحة: « الطلاق التام أو الموت الزُّؤام».

❀❀❀

القصيدة

كعادتها كل صباح؛ تتصفح الجريدة قبل موعد نزولها للعمل، تقع عيناها على قصيدة تحفظها مذ أمد طويل، ترجف أوصالها وهي تقرأها بنهم وشغف واندهاش، ولمَ لا؟ وذاكرتها تصْدُقها الذكرى، هي نفسها التي أهداها إياها مُذ عشرين عاما مضتْ، تبسَّمتْ في حزنٍ تُسائل نفسها: كم فتاة عبرَتْ حياتَه وأهداها نفس القصيدة؟.

لم تدر إلا واصابعها تتلمَّس أرقام هاتفه المحفورة في الذاكرة؛ يردُّ بصوته الدفيء الذي خبَّرته مِراراً مِن قبل؛ فتهتز أوتارها، تتلعثمُ، يعجز لسانُها عن النطق، يَرِينُ عليها صمتٌ مُطبق، تسمعُ دقات قلبها العاشق كطبولٍ تصمُّ الآذان، تستنكرُ فِعْلتها، لكنها فرِحة بالعثور عليه، احتارتْ ماذا تفعل؟ وما الذي يتوَجبُ علبها قَوله؟ تشعرُ بالعجز التام، تتصبَّبُ خجلاً، تَرْعُدُ يداها، تسَّارعُ أنفاسها، تصَّارع افكارها، لا مفر مِن غلق الخط، او الادِّعاء بان الرقم خطأ، تناوشُها نفسُها أن تبقَى للحظات، فحتماً لن يعرفَها، فقد باعدتْ بينهما السُّنون والمسافات، وغيّرت رقم هاتفها، لكنها تعترف بأن للمسافات صهيلٌ يفهمه العاشقون وحدهم، يتسكعُ القلق في جنباتها، تُقررُ وبحزمٍ غلق الهاتف، يداها لا تطاوعها، ومُجابهة الرغبة في سماع صوته تحتاجُ لمقدرةٍ تخلّت عنها.

فافتْ من شرودها وتوترها على صوته؛ وهو يُهنئها بعيد ميلادها، أُصيبتْ بالذهول، فكيف عرفَها وهي التي لم يفتر فاها عن حرفٍ أو تنطق ببنتِ شفة؟ يواصل كلامه وكأنه يقرا افكارها: نعم هي نفْس القصيدة التي أهديتك إيّاها مذ عشرين عاماً، ولم أَهْدها لغيرك.. سألته في دهشة: أوَ تعرفُ من أكون؟ أجابها: وكيف لا يعرفُ قلبي سِره الخبيء، والطَّيف الذي يسكنُه؟ ياذكرى عَطرة توسدتْ حنايا القلب والروح.

ارتعدتْ يدها؛ سَرتْ قشعريرة -أَحَسَّتْها من قبل- في أوصالها؛ بسرعة أغلقتْ الهاتف، وألقتْ بالصحيفة من يدها وأكملتْ ارتداء ملابسها كي لا تتأخر عن عملها؛ محاولة إخفاء شبح ابتسامة دامِعة تملأ عينيها.

هزيمة فوق العادة

هل حان وقت حَصاد الخيبات؟! ففي نَوبة عشقٍ وشوقٍ وجنونٍ صنعتكَ «رَجُلي» مِن خيالٍ، أشْرَعتُ لك نوافذي، منحتكَ لعُمري ليالي دفءٍ وهميةٍ، توهمتكَ تسمعُني رغم المسافات، خِلتكَ تفهمني رغم صمت الحكايات، تمنيتكَ تحتويني لأبكي فيكَ مِنكَ، ومَنْ غيركَ يفعل يا بعضي و يا كلي؟!

نعم؛ لدَي فائضُ حنانٍ، بَيْدَ أنِّي أتوقُ لحنانِكَ، أخالُك تحتويني، فحين جئتني؛ تدفقتْ شلالاتُ الفرح.. اِساقطتْ أزاهيري بين يديكَ، فملأتْ حنايا الروح و كهوف الذكرى، أثثتُ بك فراغَ العُمر والغُربة، وضعتُكَ في مكانةٍ لم يصلها من كانوا قبلك؛ إذ ليس هناك بَعدُك، تركتُكَ تعزفُ على قيثارتي؛ ولا يُلام العازف، مكنّتُكَ من اغتصاب روحي؛ ولا يُلام الغاصب، لكنه كعادته؛ قليلاً ما يترفقُ بي زماني، فما عساي أفعلُ بكل ما كَدَّستُهُ مِن أحلام؟ وكيف أتجنبُ التحرش بالماضي والتنقيب في مَغارات الذكريات؟ كيف احزمُ حقائب القلب وأعيدُ ترتيب خفقاته؟ هل تدُلني على نهايةٍ أقل وَجعاً؟ أقل ألماً؟ ليتك تترفق بي حين تختار، تُراني سأفيقُ من غيبوبة عِشقكَ؛ يا مَن كنت مشروعاً للفرح الآتي، لعُمري الآخر، قصتي التي لن أكتبها في كتاب؟

أعلمُ أني وحدي الخاسِرة؛ فحقيبتكَ مَلْأى بالمواعيد، وكم دَهشْتَ قبلي قصصَ عشقٍ خائبةٍ «أخرى»؟! وأوقنُ أنك تودُّ أن أعِدُكَ بألا يعاني تدميركَ «داخلي» غيري، وألا أخرجُ منكَ إلا أشلاء امرأة، وألا أكون غير هيكلٍ مفتتٍ؛ فقد كانت أحلامي معكَ فوق العادة؛ لذا فهزيمتي منكَ فوق العادة.

بيدَ أني لن أرعى أحزاني لحظةً بلحظة، سأدَع رياح النسيان تعصفُ بذاكرتي الملغومة بذكرياتكَ المؤلمة، ساتركُ فراشات السعادة تتنزلُ على كتفي، وافتحُ حقائب النفس الداخلية وأنقيها من الأوجاع، لأربتَ على روحي، وأشَرّعُ نوافذ الأمل والتفاؤل، ثم انطلقُ لأتنسّمَ عبير حياةٍ جديدة؛ بصُحبةٍ جديدة وكتابٍ جديد، سأزُورْ أمكنة أحببتُها ولم أزرها معكَ، ساكتبُ في دفتري أمالاً وأحلاماً وددتُ تحقيقها لكنّي أهملتها لأجلكَ، أثقُ في قدرتي على إعادة صياغة حياتي بعدكَ، سأقرأُ في سيرة المطر؛ عن غيمةٍ بنفسجية ترنو، بادية الحُسن، عن ضحكةٍ سماوية تطفو لتروي تراتيل ارضية تهفو، عن ماء السماء القادم كي يتلو اسرارَه، عن حنينٍ يتوقُ ليسكبَ اشواقَه، عن بروقٍ ورعودٍ أتية تسحقُ سنوات الحزن؛ فلا تُبقي ولا تذر غير حَقيبةٍ وذكرَى وقنينة عِطر.

رَعْشة ديسمبر

نزعَتْ من دفترها ورقة وأخذت تخطُّ بحِبر روحها: «آهٍ يا مَن سكنتَ وحدكَ قلبي والحنايا؛ لا تبحرُ سفينتي إلا في عينيكَ؛ ليتها لا تجدُ شُطآنا، فأنتَ مُرساها ومُنتهاها، قلبي على مَوعده ينتظرُ رَعْشة ديسمبر؛ لحظة يطلُّ في عينيك؛ فيرتعد دفئاً»... طَوتْ الورقة بعناية فائقة، وبرفقٍ أغلقتْ المظروف بعد أن عطَّرته بالعُود والعنبر؛ اقتربتْ منه، أطلتْ في عينيه بخجلٍ، سلَّمته ومضتْ.

وقفت ترقبه وقلبها يهتفُ في وجَلٍ: كنْ بدايتي و نهايتي، فبكَ تمضي حكايتي، تشكِّلُ ملامح كوني، تحتلُّ لحظتي ووسائدي، ترسمُ ملامح إنساتيتي، فمتى تغزل ضفائري وتهبني دفء مشاعري وتشتهي فنجان قهوتي، كي تملكَ سرِّي وعلنيتي، فلا أخجلُ ممن يراني بصحبتك؛ فهل هناك أروع مِن مَعيتكَ؟!

دنا منها على مهلٍ، يبوحَ لها، فيسكنُ نبضها، وتورقُ أغصانها، وتنبتُ سنابلها لتفض غبار مَشاعرها؛ فتهطل روعة أحلامُها، تزَّينُ مدنها، فتفيضُ شوارعها عِشقاً، تتوهج شموسها وأقمارها، تهتزُ أوتارها، لتعزفَ لحن جنونها، تكتبُ شِعراً، تنثرُ حروفها، فيحتلُ معناها.

تفتح عينيها؛ لا تراه، تتلفت حولها فلاتجده، كفيها يحتضنان قبض ريح؛ خذلَها وغادر، تركها تُلملمُ وحدها أوجاعَها... تتوه أكثروأكثر في غيابات الغُربة، تئنُّ روحها، تمضي... لم يلتفتْ إليهاعابرُ سبيل.

وَجْهاً واحداً للقمر

يُرخي الليل سُدوله؛ ليلُ العاشقين للصمت، تلوذُ مدَّثرة بكهف أحلامها؛ فكم لفتها لُجة آلامها المُمِضة بقيودٍ سامتها سوء العذاب، واكتظَّ قلبها بالوجع، حتى فتحَ مرفأً جديداً بين الضلوع لعزيفٍ أليم مبحوح يهتصرها، أضناها ذلك التعب القاسي الذي اتخذ من جسدها «المُطرَّز بالأحزان» مرْساته، كم أعلنتْ أنَّ خافقها لم يعدْ يتسع لأناتٍ إضافية فلا من مُجيب! تَمترَستْ بالصمت؛ ترنو ببصرها لسرابِ غَيمةٍ طالما تاقتْ لماء السماء؛ فلم تفتضْ إلا عن فوارغ الأحلام، قررت الهروب من هدير أفكارها المُسيلة للدمع والأحزان، طفِقت تلملمُ بقايا روح مبعثرة هامسة: «أنْ تكون لك ذاكرة قوية وذكريات أليمة فأنت أشقَى أهل الأرض، لذا فقد حان وقت الانعتاق»، تقررُ غلق مُخيلتها، تحضُّ رياح النسيان لتجتاحها، تنفضُ عن كاهلها أحزانَ سنواتٍ أنفقتها بَدداً، ترشقُ أوجاعها صارخة: كوني نَسياً منسياً.

توقنُ أن الحياة آفتها القيود، إذن فلتذعن لها ثانيةً؛ لكنَها هذي المرَّة إذعان طوعٍ وتلبيةً، تتهيأ؛ تمد كفيها بمِلْكِها نحو قَيدٍ جديد.. عجيب، قَيدٍ لا يكبلَّها بلْ يُبلسِمها.. قَيد الأمل، فمن يدري علَّ الصباح ينْهمرُ ثانيةً، ويتشققُ الزهر، ويترقرقُ الندى في قلبها الغَض، فيَجُرّ خلفه قَيدَ «حُبٍ» ترسمه ألوانُ فرشاةٍ تعشقُ وجهاً واحداً للقمر.

القَيد

كعصفورٍ حبسها؛ حتى أدمى قلبها من فَرط هيامه وعِشقه المجنون؛ قَيَّدها وخبأها بعيدا كي لا تدركها خائنة الأعين؛ ذات ليلٍ أطلَّتْ الحزينة، فانبهرت بأضواء المدينة، ولمَّا لم تحتمل المِسكينة؛ فكَّتْ قَيدها؛ عصفتْ بعشها؛ طاويةً أحزانها؛ باسطةً أجنحتها .. قفزت سُلَّم حياتها تركض جزلى؛ فتلقَّاها بطوفانٍ جارفٍ مِن اللهفة، همسَ واعداً بسربٍ من يمام المفاجآت والمُنى، أُصيبتْ بدوار نشوة الحياة؛ ومعسول الكلمات؛ أوشكَ أن يطمثَ روحها ويَهمَّ لولا أن رأتْ برهان ربها؛ فتكشَّف لها زيف البشر وغدرهم، وكيف يتجملون وهم الكاذبون، فتعجبَتْ وهي ترى الغدَّارون يتصادقون، فلم يحتمل قلبها –وهو المُلام– خُبث اللئام.. عادت «النَّجمة» تنفض ما علق بها من رماد الأرض، وارتقتْ لعلياء السماء؛ تعتذر للقمر، فرمَقها ساخراً: تلك هي طبائع البشر، أرقُبهم كل ليلة، أدركُ ما يسِرُّون وما يُعلنون، وأعي خباياهم ونجواهم وما يدَّعون، فلما استوتْ على عرشها؛ مدَّتْ يدها تُعيد قَيدها، وتدثرتْ بالغيوم وهي تبوح راضية: ما أجمل البُعْد بين أرضٍ دنِيّة ونجوم سَمِيّة..

وتَبقى

وتبقَى؛ كَمَلاكٍ ترجَّلتَ من عليائك، تناسلتَ خِلسةً بين أضلعي؛ حتى نزَفت صَباً وشوقاً، لهجَتْ عيون الحُب بالويل لي فلم أُبالي، حذرَتنِي عيناكَ كي أتحاشاكَ ما استطعت إليكَ سبيلا، فدمدمتُ: كيف؛ ولا مرفأ لي سواك؟! وكيف أنسى: «يا مليكتي المَهيبة» كما أسميتني، «يا مُتوحشة الجَمال» كما وسَمتني، «لن تكوني عاشقةً حقاً إلا إذا مُتِّ وَلَهاً».. هكذا علمتَني.

حين أشعلتَ قناديلَ اللهفة، اعتقلني القلمُ بين نابِه وبَوحِه؛ فحِرْتُ، كيف أكتبُ عن مشاعرٍ لا تقبلُ التأويل، عن حُلم عانق صَحوي فتشاكلَ علي، عن قلبٍ ذاب وجدا وتلاشى شجواً؟! كيف بعثرت عليَّ أسئلةً تقتاتُني وتَقُد من ليلِي، ولمَ أمهلتني حتى غرقتُ في يَمِّك الهاديء؛ وورطتني فيكَ حتى شهِقَ قلبي باسْمِكَ؛ وها أنت تسقطهُ بطلقة غيابٍ طائشة، وبنزيفٍ ينثالُ على حواف الخَيبة؟

عُدْ يا فرحي المُتأهِب للرَّحيل، عُدْ كي نكسرَ معاً صمتَ المشاعر، عُدْ لي مُشتاقاً أكن لكَ ترياقاً، عُدْ ولا تغتالني مرتين؛ بكَرم وصلكَ ومُدية صمتكَ، أم تودُ أن تبقى ذكرى لدفقةِ هواء شهية مَرَّتْ، لَهَبَّة رياح ندِية عبرَتْ، لذكرى وجع استكان يجب أن أتدربَ على احتماله، عُدْ ولا تدع الأيام تتلو حَكاياً مِلؤها الرَّتابة، لاتغادر؛ ولاتعتصم بالصَّمت، لأنِّي أُوقنُ أنَّ غيابكَ مَحض وهْمٍ.

وطني

حين أهديتني دفاتر أشعاركَ؛ خبأتُها خزانتي، تتعجلُني لأقرأها؟! ألم تدركْ بعد أنكَ صرتَ سِري وخبيئتي، وأن عشقكَ زادكَ مَهابة وجلالا، فكيف أجرؤ على قراءة كلماتك؟! أعشقكَ؛ نعم؛ بغروركَ وكبريائك، بتواضعك ونُبلك، بضجرك وثورة عقلك، بذوبك وهيامك، بدنُوك وسموك، بسرِّك وعلنك، بشموخك ورقيك، بضجيجك وهدوئك، بجبروتك وضعفك، بصمتك وبوحك، بودك وهجرك؛ حتى حينما ترتدي ثياب العاشقين ولستَ بعاشق تحيا حروفي بكلماتك، أشربُ أنفاسك، فهل أغارُ منكَ حين يهواك قلبي أدبرتَ أم أقبلتَ؟! حين يعشقكَ حرفي وقلمي فلا يحركهما إلا أنت؛ ولا يكتبان إلا لكَ؛ وكأنّي لستُ بصاحبتهما!

وهل ستدركُ يوماً روعة عشقي لك؟ متى؟ كي ألقِّنُ نفسي درساً يرفض اليأس في عِشقك، أشتاق إليك، أتوق لرائحة الجسد بلا عطرٍ مُصطنع، فمتى أختبيء في غابات صدركَ المُتسع؛ علِّي أُطفيء حنين غيابٍ لا يملك إلا الشوق والوجع؛ شوقٌ يُحِسّك في كل الأمْكنة، في الشوارع والطرقات، حين أتنفسكَ وحين أتحسسك؛ لحظة أتأملك؛ وأتلمسكَ؛ ساعة أمشي فيكَ؛ وأطوف بك، وقتَ أنتظرك لأحملُكَ وتحملني؛ كي ننام ونصحو معاً؛ لأبثك شوقاً وعشقاً عَصياً على الكتمان، ألم أقل لك إنك سيدي؟ فهل أصدِّقُ أنّي معك حقا دون حدود تفصلُنا، ننصتُ معا لصوت الكروان.. ياوطني؟!

مسافرٌ..

قال: سأسافرُ؛ اكتُبي لي

همستْ: قُربُكَ مِدادُ قلمي

قال: هَمسُكِ يُسبي؛ صمتُكِ يُشجي

قالت: إليكَ أبتهلُ وأُصْغي؛ كل الأشْرعة إليكَ تمضِي، كل الدروب لكَ تُفضِي

قال: فيكِ أعتكفُ وأرتجفُ، بكِ مِحرابي وصَلاتي

قالت: حين تسكتُ ألوذُ بعطر صمتكَ لأبوح

قال: حين تغيبينَ؛ أفتشُ عن كلماتٍ لم تُخلق بعد، وعن لغة لم تُهمَس قبل؛ لأتهيأ لكِ

هتفت: إذن ستعود لي مُحمَّلاً بحقائب الشوق؟

قال: لن أسافر؛ فأنتِ قصيدتي؛ أنقشها عِشقاً فاقَ كل احتمال.

وراودتُه عن نفَسِه

لطالما راودتُه عن نفسه، وددتُ إهداءَه كل الوقت، عشقتُ تبذيري الجميل في حُبه وتدليله، انتظرُه صباح مساء بطوفانٍ جارف من لهفة، أتسمَّع صوتَه، أنصتُ لمُناجاته، أبسطُ له راحتي عله يرضى ويستكين، أسقيه حَد الثمالة، أُطعمُه حد الاكتفاء.. فيُهدهد روحي حد الانتشاء.. أنــاورُه.. أحاصرُه.. أغازلُه.. أتريثُ طويلا دون كلل حتى ألقنُه أصول فِقه غرامي؛ لأُحصنَه بورعٍ عاطفي فلا يغادرني لغيري.. كلما جاءني؛ يعزفُ على قيثارة روحي، فيزدادُ إفراطي في عِشقه، يغازلني طَيفه حين يغيب؛ فانتظره في صحوي وغفوتي؛ يأتِني مُبشراً غير مُخلف لمَوعدي، أُريده كل الوقت، ويريدني وقت الحاجة! أعجز كثيرا عن هَتك أسرار لُغته، لكن عيني تفصِحُ له عن شِفرة سِرِّي!

أفتقدُ يمام نافذتي التي غادرها؛ وقت سفري، فلم يجد من يرعاه، فطار حزينا أسيفا... سأعاود مُراودته بالماء والحَب، والود والحُب؛ علَّه يحط على شرفتي ثانية؛ ليُسمعني هَديلَه الحاني.

القَرار

أغدقتْ عليه بأحلام الرضا، فلم يلفاها إلا بأنيابِ الجُحود والنكران، جفلتْ طيورها هاربة؛ بعد أن تغلغلَ فيها الحزن والضجر؛ أتاها مُتحصِّنا بألسنةٍ مُبللةٍ بالعَتب واللوم، يتباكى ويتشاكى؛ يحتالُ ليعودا ثانيةً، أبَتْ؛ مُوقنةً أنها كَرةٌ خاسِرةٌ أُخرى، يكفيها ماضاع من عُمرها الذي باتَ هباءً منثوراً؛ وروحها التي أنفقتها بَدَدا؛ فمن يُعوضها عما مضى من قطار سنواتٍ فاتتْ كطائرٍ مُعَمَّمٍ بالسَّواد، ينتقلُ بها مِن فَننٍ إلى فَنن مِلْؤهُ السأمُ والمَللُ؟ قررتْ التمسكَ بقرارها، لابد من الرحيل، أغمضتْ عينيها، أطلقتْ لخيالها العَنان، أطلقتْه من قُيوده، حرَّرته مِن أصْفاده وأغلالِه، مدَّت يدها في خزانتها؛ سحبتْ لفة حريرية مربوطة بعناية بالغة؛ بوَجلٍ وشوقٍ دفين فتحتها، وقعتْ عيناها على صور قديمة خبأتها خوفاً عليها مِن ذاكرة النسيان، لكنها لم تنسَ الذين رحلوا بوهَجهم؛ تاركين مقاعِدهم شاغرة؛ إلا من نِثار ذكريات، وتوقٍ ووجدٍ ينتظران، وما تَبَقَّى مِن عطرهم، مُوقنة أن غيابهم مَحض وهْم.

❀❀❀

حافة الابتسام

قال: الحزن توأمي ياعزيزتي؛ فمن يغادرونا فجأة؛ يذكروننا بالذين رحلوا مُذ زمن؛ قد ندَّعِي نسيانهم، ثم نكتشفُ أنهم أقربُ من حبل الوريد.

قالت: تُراكَ لم تخرجْ من أحزانِك بعد؟ هكذا النبلاء؛ تتماهى رهافة حِسهم مع أحزانهم وتتعانق طويلا.. فلاشك أنَّ إحساس الفَقد ثراءٌ عظيمٌ من الألم، لكنه يا صديقي يعني أننا عِشنا واختُبرنا، وليس أمامنا إلا تجاوز الفَجيعة بكل شجاعة والانعتاق منها، لنصْطفَ في المُقبِل من أيامنا على حافة الابتسام، نفتحُ له طريقاً يجْرف معه ما نَحمله مِن أَسى.

تُراني أُعزيكَ لأنّي عَصيّة على الأحزان والآلام؟ علّكَ تُسائِل نفسَك، أُجيبكَ: الذين يمرُّون بتجاربٍ مؤلمة مولعون بتعزية الآخرين، فيا صديقي ماتزالُ الحياة مُمتلئةً بكثير من الأوقات الحلوة؛ وبمَن نحبُ مرافقتهم، فلا تُضيعَ الوقت؛ وأبلغهم مَأمَنهم في قلبكَ.

رائحة الوداع

باشتهاءٍ واشتياقٍ عشقها، بنهمٍ أقبل عليها وامتثل لغوايتها، بقلبٍ رهيف رقّ حتى سلبتْه رُوحه ولُبَّه؛ فشحذَ همَّته نازعا خوفَه، تسلحَ... ناورَ... قاومَ طويلاً لأجلها؛ مُتجاهلاً ذلك الصامت القابع الذي يرنو إليه في دِعة؛ يرقبُه ويترقبُه في أناه، ظلَّتْ الغانية تتقاذفه وتُراكضه بين يديها؛ حتى سئِمتْه وغادرَتْه، فنضبَ كبرياؤه، وتغضنتْ روحه، وتقطّر جسدُه بذروفِ دمْعه على آلام تهصرُه، تفاقمتْ أنّاته، وارتعدتْ نفسُه، فتَّش في عَتمة الروح حتى وهنتْ حججه.

تاقتْ ذاته للراحة؛ بخطوٍ وئيدٍ دنا من ذاك القابع مُتوددا مُسترحِما؛ يشتهي سابغ عطفِه... تمدَّد في صمت مُستسلماً؛ فطافَ عليه المَلَك باسما: «الأن لديك مُتسعٌ من الراحة »، تسكنُ نفسه... تُبصرُ عَين روحه... ينقشعُ الضباب أمام ناظريه؛ في هدوءٍ يُرخي جَفنيه، فتضوعَ رائحة الوداع.

❀❀❀

بَريق عَينيه

تِلالٌ صفراء فاقعٌ لونُها تسرُّ الناظرين، عَينان قلقتان مُعلقتان بالوادي تنتظران حُمر النُّوق، أتاها مِن خلفها يحتوي أمواج شَعْرها المُضطربة، بريقُ عينيه أشْعلَ شموسها وأقمارها، فأدركتْ الشقائق معنى الانتماء للنُّعمان، على الرمال رسَما طَعْم الفرحة، واستأمنا عليها رِيحاً طَيبة، حين جنَّ الليل تساقطتْ النجوم خَجلاً، بقِي الهلال وحيداً باهتاً ومُكابرا، تَسللا لخيمتهما يلقنانه درساً كيف يصيرُ بدراً.

راحِلةٌ إليكَ

غرقتْ في صمت أيامها، تغالبُ أوجاعا مُمضَّة، تهربُ مِن أفكار تترصدها، يلتقط القلمُ بوحَها: «ماكنتُ لأنتبهُ لأصابعي لو لم تكتبْ إليك، أبكي وأنا أكتبُ، بل أكتبُ لأني أبكي؛ فما أقسى بلاد ترحلُ إليها لا تملك فيها ذكريات ولا وَهَج الحكايات، كل مُهمتنا أن نرصدَ تسكُّع الألم في حنايا الروح، ثم نلوذُ بصمت سنين توهِمنا أنّا مازلنا أحياءً، لا نملكُ إلا أن نُدون نثرات حروفٍ حزينة؛ بعد أن صارت الحياة عبئاً ثقيلاً، ومع ذلك أنتظرُ غداً أتمنى ألا يأتي؛ كي أبقى على قَيد حلم قُدومكَ وعُرْس عيني؛ حين تزفّ نظراتها إلى عينيكَ تهديكَ قِطافَها... أكتبُ لأبلغكَ أنَّي لن أُهرقَ الدمع الهَتون حُزناً على الفراق، ولن أدع رائحة الوداع تضوعُ في المَدى... أكتبُ لأقول لك إني راحِلة إليك مُمتطية صهوة الخيال كي أُلجِم صهيل المسافات».

أجمل الحكايا

مضى يدوس بقدميه مُستمتعاً بصوت هشيم أوراق الخريف المُتساقطة، وكأنه يَهبُ لنفسه نصراً وهمياً، هارباً كل يومٍ من جليسه الوحيد، ذلك الذي يُجيد بمهارة عزف لحن الخَواء، طافتْ بخياله تلك التي تُراوده كل ليلة في أحلامه ببسمة مُحيّاها؛ وبريق عينيها الذي يُناوشه كلما أطلّتْ، كمْ يتوقُ لنداها؛ لشذا عطرها؛ لدفء يديها.. تنهدَ يأْساً، وروحه تنزف قلَقاً، قفلَ عائداً، فتراءتْ له، يُكللها هدوء مُفعم بصَخبِ الكلام، وعينان لوزيتان تختصران –بصمتٍ– أجمل الحكايا، ناولته مظروفاً، وتوارت كغزالٍ يتعثرُ بدلالٍ، فضَّ حروفها بنهمٍ، تملَّكهُ الحبور حين صدُقَ إحساسه بأنّهُ مَن أحكمَ قبضته النشوى على قلبها، وأنّهُ من خبأَ قصائده في عمق عينيها..... فرحَ كما ينبغي له أن يفرح.

❀❀❀

الضَّحية

ناءتْ بظُلمهم وتجاهُلهم، حتى غدا قلبُها كسيراً كسيحاً، تعاقبتْ السنون؛ يتسَوطها الألم المُمِضّ، وتفنيها الهموم، أدركتْ أن العجز الحقيقي في المشاعر لا في البدن، وأن الفشل يكون في عدم القُدرة على تقاسم رغيف الأُلفة، قبعتْ في حجرات الفقدان الأليم الباذخة البرودة زمناً، فلما جنَّ عليها ليل أحزانها طويلا؛ ضاقتْ ذرعا ولم تقو على احتمال أوجاعها، قررتْ أن تبوح للتخفيف عن الروح، حين علموا لم يترفقوا بها، لعَنوها، أهملوها، لم يعيروها اِلتفاتاً، حزموا لها حقائِب اللامبالاة، ألقوا عليها رِداء الخطيئة، باتتْ من ضحية إلى عاصية، رَحلتْ؛ تاركةً خلفها سنين عُمرٍ أنفقتها لأجلهم، لم تبكِ أو تستدرعَطفهم، مُوقِنة أن الضحايا دائماً يهُونون ويَرحلون دون حقوق.

ويَخضَرُّ السَّراب

قال: أُعلمُهم الحُب علّهم يذكروني بعد الغياب.

قلتُ: الذين ينشرون الحُب لا يغيبون.

قال: بل يحصدون الحُزن والألام، فقد تغير الزمان.

قلتُ: لنكن أنفسَنا المُحِبة؛ علّنا نُحْرِج زماننا، وحتماً سنَلقى من يُشْبهنا.

قال: تُجدفينَ في الصحراء، لذا لن يأتيكِ إلا السَّراب.

قلتُ: يوماً ما تستحيلُ الصحراء ماءً، ويخضرُّ السَّراب، ساعة ما يأتوننا بموعدهم؛ كقطرة ندى، يصبحونَ رِياً للروح وسْط هجير الصمت، فطُوبى لهم لحظة يُخصِّبون حياتَنا بطيب تواصلهم.

شروق

داهمَهُ الغروب؛ فاجتاحتْه مَوجةٌ مِن الكآبة، حين ائتمنَ روحَه على ذكرياته المتراكِمة؛ فباتَ يَخشى استعراضها في قرارةِ نفسِه، تشاكسُه الذاكرة؛ تناوشُه؛ تبارزُه؛ تناولُه طعنات قاصِفة راعدة، يقعدُ على رصيف الذهول؛ يجمعُ حطباً، يشعلُ ناراً، يلقي بعض مَلفات الذاكرة، تلتهمُها المحرقة قبل أن تفترسه، طَفقَ يغالبُ دمْعاً طفرَ إلى عَين روحه، أخذَ ينقلُ الطَّرفَ بين سِربٍ مِن القَطا وعاصفةٍ مِن الأفكار تصفعُ رأسَه، يتمتمَ: تاقَ القلب للانعتاق، تراوده نفْسُه ألا يستسلم لداعي الألم الذي يتسوطه مُذ أمَد، يمَسَّدَ صدره المُتقد براحتيه، بعزمٍ ينفثَ لهيب جَوفه، يرَشقَ أوجاعَه، يتراءى له بصيصُ رؤيةٍ مُبشرةٍ؛ لم يتيقنْ بعد، راحَ يبتهلُ في عُمقِ روحه قابِضاً على أهدابِ الأملِ.

❀❀❀

كفاك توقيعاً على قلبي

ويسْري دمُكَ في عروقي، فينثالُ دمعي في عينيكَ، وتَهفو الروح لعِطركَ؛ لتنسابَ الأماسِي فُراتا، كنَّا شَطري يوسف، نتقاسمُ الشَّجن والحكايا، ضَنَّ الزمانُ بوهجه؛ فولَّتْ هدهداتُ المُنى، وتوسَّدت الملائكة الدَّمع، ليبقَى في الحنايا شجنٌ سارِب، وحنين أبَدي للمساتك المُذهلة؛ التي تُزهر وروداً بالروح، وتزيلُ أثقال همومٍ ناءَ الكاهل بحمْلها.

قررت أن أكتبُ إليك بحِبر روحي؛ بعد أن ناءتْ المسافات ما بيننا، كفاكَ توقيعا بذكرياتك على قلبي؛ فلم يعدْ نبضُه يحتمل، حين أطلُّ في مرآتي أرقبُ علامات السنين، أتذكرُ هَمسكَ: «السنون تخافُ مِن علامات الفرح؛ اطمئني؛ فقلبي مِرآتكِ»، فلمَ غادَرتْ؟ ومنْ غيركَ يُطمئنني على علامات الفرح؟

غواية

بكامل زهوها تهيأتْ لسيد الدفء والأمان، أقفلتْ ستائر الغرفة بإحكام، دنتْ تنظر في عمق عينيه الشبقتين مُتبتلة: «افعلْ ماشئتْ؛ فالمدى كُله لك»، اقتربَ منها، تهيأت روحه العاشقة، التصق بجسدها المرمري، مَدَّ أنامله بقطرات ندى يُبللُ ثغرها الشَّهي، مَدهوشاً بذلك الجمال الذي يكفي لإغواء الليل كلّه.

تَرِقُّ روحه وتَشِفُّ بصورةٍ لم يحسها مِن قبل، يلثمُها حتى الثُمالة، تُهامِسُه: «أنا امرأة تتوضأُ وتشتعلُ بالموسيقى والكلام البديع»، يمَسِّدها براحتيه، توقنُ أنه ذلك الفارس الذي أتى ليحررَ الفجْر مِن سَطوة العَتمة، فينحسرُ ثوبها الأسود الشفيف عن كامل فتنتها، تتسللُ يداه بهدوء ناعم مُلتذ؛ فتُورِق ورودها وسنابلها، تستلقي جواره بعينين يَقظتين، وروحٍ نائمة هائمةٍ في دِعَة بين كفيه، وارتعاشةٍ خفيفةٍ تتغشاهما.

الحبُ الأول

أطلتْ في عينيه؛ فارتعدتْ دفئا، نبض قلبُها بسحر الحب الأول؛ سرى في عروقها روعة الانتماء للحبيب، اشتعلتْ حناياها بنار التوق، تنشَّقتْ عبير الأمنيات، وجِلتْ من أن تفضحها عيناها، تكدَّستْ لوعة الكلمات في صدرها، وماتت صمتا مُختبئة تحت كتب الجامعة وهي تحتضنها لتخفي مايعتمل بروحها، ولمَّا لم ينتبه؛ وجهِلَ قراءة نظراتها، استظلَّتْ بأوهامها، فهطلتْ فوارغ أحلامها، واختبأتْ خلف جفونها دموعٌ سَواجم، جفلتْ عائدة لغيابات الذاكرة؛ يهامِسها قلبها: حتماً يتورَّد الأفق ثانيةً بسِره المُقدَّس.

عُطْلة

فجأة يجدُ ذاته أشد انشغالاً وأكثر أعباء، يضطر مُرغماً مُصاحبة رِبْكة المواعيد؛ مُراوغاً للملل، مُروضاً لخصومة شديدة مع النوم والراحة، يتواثبه إعياءٌ يحاول عَقره، تجفلُه راحة البال؛ يصبحُ أشد مُعاناة ومكابدة لحياة الفوضى؛ يغدو مُتخماً بالهدر والتبديد لقيمة الوقت، تسَّاقطُ أشلاء الزمن أمامه وهو قابعٌ على رصيف الذهول ينظرُ بسذاجة لجثة ذلك الوقت المُسجى والضائع والمستقطع من عُمره دونما فائدة؛ خاصةً لمن يعشقون حياة النظام والعمل ويمقتون الفوضى والفراغ، يصرخُ ليزيل جبالاً من فوضى باذخة رانتْ على قلبِه، يُمسكُ قلمه؛ يُدوِّنُ: دون الكتابة تصْبحُ الحياة عِبئاً ثقيلاً؛ أيتها العُطْلة متى تنْجلينَ؟

❀❀❀

هَدأة

حين عشِقتُ؛ غادرتُ ساحل الاطمئنان إلى بحرٍ هائجٍ أكثر اطمئناناً.. مُكبلة أنا ومُنعتقة، أعشقُ وأخشى الغرق في فضائه الحُر، اقتربُ منه مُنتشية بعطري المُحرِّض، مُمتلئة بشوقٍ مُميت قد يقتله بين يدي أو يبعثه حياَ، ألقي برأسي على مِساحة السحر المُغوية المُثيرة لصهيل الشَّهوة؛ تلك التي بين كتفه ورقبته، وبأنفاسٍ مُعتقة برغبة الاقتحام؛ أتمددُ كآلهة الاسترخاء؛ حين يسري بها العِشق ويعرج فيها إلى عُمق مدى البوح، أروحُ في هَدأة غفوةٍ لذيذة؛ حيث لا قيود تُكبلُ الجَسد.

❀❀❀

شَجَنية لـ«لوركا»

تخطفهُ رغبةٌ في البُكاء؛ يطاوعُها دون خَجل، يقتربُ ليئنّ فيّ، أهتِفُ فيه مُنادية: كُنْ «لوركا»، اِحلمْ، اِعزفْ، اُكتبْ شِعرا، ثِقْ أنَّ النَّهارَ نهارُك، والمساءَ مساؤك، والمفاتيحَ لك، والمآذنَ بك، والمصابيحَ بعض سَناكَ، وأنتَ آدمُ الجنتين، اِحملْ دهور الحزن والظلم على ظَهرِكَ، فقدرُكَ أن تكونَ واحِداً مِن الملوك، لكنّك أبدا لن تنكسرَ، سأكتبُ في دفترِكَ الأن: «أنا مَنْ صنعَ التاريخ»... وذاتَ فجرٍ سنقرؤها ونبتسِمُ.

شجرة التوت

رذاذٌ خفيف يَهمي؛ يهزُّ تجاويف روح تَهوِي، ينعي شَذرات أحلام مُبعثرة في ربوع يأسها، فيكشفُ القلب الكسير عن كنوز حزنٍ مُخبأة، وعن دمعٍ يسّاقط على يماماتٍ طارت بعيداً بعيداً... تتدثَّرُ بِوُدٍ عباءة شجرة توت تنتظرُهم في أُناة.

❀❀❀

أم تأمرُهم أحلامُهم(*)؟

تَوَدَّدَ حتى وَسَّدوه، وهويُضمِرُ في نفسِه أمراً ذا خطر، فلما اعترشَ سُدَّة المُلك، عَصفتْ به عواصف الزهو والجبروت، وتطايرتْ مِن عينيه النُذُر والشرور، وانطلقتْ الكلمات مِن فيهِه كنِثار مُرْعِدٍ مُستطر... فلمّا وجموا؛ حدَّجهم بمآقٍ حادة ثقبتْ أرواحهم، فغضوا -حَذَراً- أبصارَهم، وازدردوا أحلامَهم، واستحبوا العبودية على الحرية، ونَدَّت عنهم الآهات فُرادى وزرافات، يعزفون لحْن الخضوع والطاعة؛ امتثالاً للمقادير؛ وماهي بمقادير، ولكن بما كسبَتْ أحلامهم.

❀❀❀

(*) عقولهم.

والقمر ثالثهما

ذات شوقٍ؛ دنا يرتشفُ عطر أنفاسها هامساً: مَنْ خبأ أشعاري في دفتر عينيكِ؟

ارتعدتْ دفئا؛ فباحت له في صمت: منْ وسَّد روحي فوق كفيكَ.

سألها: ماذا تحتاج شهرزاد؟

أجابت: قِنينة عِطر؛ وخُفين من زهر الكستناء، لأني أعلم أنك لستَ نبياً من الأنبياء.

أرختْ يديها في كفَّيه مُلقيةً برأسِها على كتِفه، راحا في سَكْرَة عِشق، والقمرُ ثالثهما.

فهرس المحتويات

تَهيئةٌ 5
ويَبْقَى عِطْرُها 7
مِن نَظْرَة عَيْن 11
أوتارُالعاشِق 15
الأنيق 20
سَنة أُولَى حُب 21
زهور ربيعٍ مَنْسِية 25
عيناها 30
حَدُّوتة قبل العِيد 31
عُشاق المَوت 35
عامِل الترحيلة 39
يومٌ لي 43
رِضا 46
الجوع 47
خُلْع 52
الكَفَن 53

لَحْظتي السِّحرية 57
عَينُ الحُبِ لا الكُره 63
لَوْلا أنَّ أهلَكِ أخْرجوني 67
رائحة العَفَن 70
قلْبُ العُصفور 71
زَهرة 74
يومٌ أخيرٌ لنا 75
الرَّكْعَة الأخيرة 77
الحياة رَجُل؟! 81
هروب 86
زمن الحُزن إلى بيروت 87
غُربة 92
مِلْءُ القلب 93
الغرفة 616 95
للرِّجال فقط 99
البحرُ يعودُ ثانيةً 103
هيباتيا العذراء 107
عَوَضِية 111
غرور 114

الخاطبة	115
رِزق	118
الإرهابي	119
الفراشات	122
جُزُرٌ مُنعزلةٌ	123
موسيقى	126
رسالة حُب	127
أنا الحُرَّة	130
الطلاق الزُّؤام	132
القصيدة	136
هزيمة فوق العادة	138
رَعْشة ديسمبر	140
وَجْهاً واحداً للقمر	141
القَيد	142
وتَبَقى	143
وطني	144
مسافرٌ..	145
وراودتُه عن نَفسِه	146
القَرار	147

حافة الابتسام 148
رائحة الوداع 149
بَريق عَينيه 150
راحِلةٌ إليكَ 151
أجمل الحكايا 152
الضَّحية 153
ويَخضَرُّ السَّراب 154
شروق 155
كفاك توقيعاً على قلبي 156
غواية 157
الحُب الأول 158
عُطْلة 159
هَدأة 160
شَجَنية لـ«لورْكا» 161
شجرة التوت 162
أم تأمرُهم أحلامُهم؟ 163
والقمر ثالثهما 164